من طلائع يقظة الامة العربية

عزيز علي المصري نجيب عازوري

فرح انطون شبلي شميل

تأليف

مكي حبيب المؤمن و علي عجيل منهل

دار الرشيد
للنشر

منشورات وزارة الثقافة والاعلام ـ الجمهورية العراقية

سلسلة دراسات
(٢٧٥)

١٩٨١

المقدمة

اربعة : (عزيز على المصري ، فرح انطون ، شبلي شميل ، ونجيب عازوري) من طلائع حركة اليقظة العربية الحديثة ، ساهموا في اختصار ليل الدولة العثمانية سياسيا وفكريا ، ولعبوا دورا رائدا في حركة القومية العربية الحديثـــة .

عزيز علي المصري ، يعتبر (الاب) الروحي لحركة القومية العربية[1] الذي جاهد من اجل القضية العربية ضد التسلط التركي . ونجيب عازوري ، اول من اكد على وجود امة عربية واحدة في كتابه (يقظة الامة العربية) وكان من الرواد الذين نبهوا الى المخاطر الصهيونيـة على الامـة العربيـة ومطامعهـا في فلسطين . واعتبر شبلي شميل وفرح انطون من (طلائع الفكر الاشتراكي في الوطن العربي[2]) ووصفت افكار فرح انطون ، بانها تركت (اثرا) على الشعب العربي (شبيها بذلك الاثر الذي يتركه دين جديد في قلب جديد[3]) ان شبلي شميل وفرح انطون ، قد اضافت اراؤهما بعدا اجتماعيا لحركة اليقظة العربية الحديثة . وشكلا نقطة البداية ليسـار تقدمي في الفكر العربي المعاصر[4] . فالاول ، اول من دعا الى الانتفاضة على الافكار السلفية القديمة وترجـم نظرية دارون للتطور الى لغة الضاد . وتحدث عن الاشتراكية والتطور والعمران ودور الصحافة والتربية والتعليم . اما فرح انطون فهو احد ابرز عناصر الفئة

---

(١) مقتبس من الدكتور مجيد خدوري ، افاق عربية عدد ١١ ، ١٩٧٨ ، ص ٧٤ .

(٢) د. الياس فرح ، الاشتراكية في الوطن العربي ، افاق عربية العدد ٣ ، ١٩٧٦ ص ٢ وكتاب الاشتراكيـة في الوطن العـربي ، ص ٦ ، بيروت ١٩٧٧ .

(٣) مقتبس من سلامة موسى ، انظر : ثلاثة لبنانيين في القاهرة ، د. رفعت السعيد ص ٧٦ .

(٤) د. هاشم شرابي ، المثقفـون والغـرب ، ١٨٧٥ ــ ١٩١٤ . بيروت ، ١٩٧١ .

المثقفة العربية التي برزت على المسرح السياسي والاجتماعي في الدولة العثمانية والمعبر عن الجناح الراديكالي في حركة اليقظة الفكرية العربية الحديثة .ان انطون من المفكرين القلائل الذين دعوا العرب الى اعتماد العلم والفلسفة لنهضتم الحديثة ودعاللتسامح الديني واحترام حقوق الانسان وهاجم الاستبداد التركي .

ان افكار هؤلاء الرواد الافذاذ المساهمين في حركة يقظة الامة العربية كانت لا تخلو من الشطط والارتباك ، تم مناقشتها في ثنايا البحث . كما ان قسما من مادة هذا البحث قد نشر في بعض المجلات العربية ، وقد جمعت مادتها على اساس الوحدة الفكرية لهؤلاء الرواد ومساهمتهم في حركة اليقظة الفكرية .

واخيرا ، نأمل ان تكون مساهمتنا ، بتوضيح دور نخبه طيبة من خيرة مفكري عصر النهضة العربية ، مساهمة ، بسيطة باعادة صياغة تاريخ يقظة الامة العربية الحديثة ، على اسس موضوعية ، الى حد ما ، وبشكل يعرف الجيل الجديد المتطلع لمعرفة تاريخ امته . ونقدم شكرنا للاخ الدكتور كمال مظهر احمد ، الاستاذ بقسم التاريخ بكلية الاداب ، جامعة بغداد ، لملاحظاته القيمه حول الفصل الرابع (شبلي شميل)

مكي حبيب المؤمن و علي عجيل منهل

الفصل الاول

عزيز علي المصري وحركة القومية العربية

بقلم د . مجيد خدوري **

اشارة

(●) عزيز علي المصري ، هو بالأصل من القفقاس ، وانتقل اجداده الى البصرة حيث سكنوا فيها . ومن البصرة انتقل جده الى مصر حيث ولد عزيز علي (المترجمان) .

(●) الدكتور مجيد خدوري هو احد الكتاب الذين اهتموا بالقضايا القانونية والسياسية المتعلقة بالشرق الاوسط . وهو مدير لمركز دراسات الشرق الاوسط في مدرسة جون هوبكنز ، للدراسات الدولية المتقدمة . وهو مؤلف الحرب والسلام في قانون الاسلام ، والعراق المستقل ، والتشريع الاسلامي ، وليبيا الحديثة . كما كتب اعمالا اخرى ، (المترجمان) .

بالنسبة لعدد كبير من القوميين العرب ، يعتبر عزيز علي المصري «الأب» لحركة القومية العربية الحديثة ، والقائد الثوري الرائع (Par Excellence) الذي جاهد من اجل القضية العربية ضد التسلط التركي[١] .

ان هذه السمعة قد اتته ـ جزئيا ـ من مشاركته في اقامة الجمعيات العربية السرية قبل الحرب العالمية الاولى ومحاكمته وابعاده عن تركيا في عام ١٩١٤ ، وجزئيا من مشاركته في المرحلة الاولى من الثورة العربية لعام ١٩١٦ .

ان المخاطر التي تعرض لها ، وخصوصا اعتقاله ونفيه من اسطنبول قد خلقت حالة من الانفعال في البلاد العربية ، ودفعت تي ، اي ، لورنس الى القول بأن عزيز علي المصري كان نموذجا للضباط العرب[٢] .

غير ان تركه المفاجىء للحجاز ، بعد ثلاثة أشهر على بداية الثورة العربية وفي ظروف لاتزال غامضة ، يلقى شكا حول ما اذا كان هو في الحق مجاهد من اجل تطوير حركة القومية العربية .

ان السجلات المعاصرة توفر لنا بالتفصيل ، واحيانا «بتعارض ، معلومات عن مغامراته وكلها تقريبا» تربطه بالقضية العربية من خلال الوسائل الثورية ، ولكنها تفشل ان توضح لماذا ترك عزيز علي الحجاز قبل ان ينهى مهمته ، وليس هناك من مصدر بريطاني مطبوع لحد الان يلقي ضوء على الموضوع .

---

(١) انظر على سبيل المثال جورج انطونيوس (يقظة العرب) لندن ١٩٣٨ ص‌ص ١١٠ ، ١١٨ ، ١٢٠ . كذلك اسعد داغر ، ثورات العرب القاهرة ١٩١٦ ص‌ص ١٠٣ ـ ١٠٨ . كذلك اسعد داغر ، مذكراتي على هامش القضية العربية القاهرة ١٩٥٩ ، ص‌ص ٣٦ ـ ٣٩ و ص‌ص ٤٩ ـ ٥٠ .

(٢) تي ، اى ، لورنس ، اعمدة الحكمة السبعة لندن ١٩٣٨ ، ص ٥٩ .

هناك اشارات قليلة تشير الى عدم الاتفاق مع الشريف حسين ، يمكن ان توجد في بعض السجلات ، ولكن الاسباب المعطاة تتراوح بين كونها قضايا شخصية بحتة ، الى قضايا تتعلق بالسياسة .

ان التصريحات المتعارضة حول دور عزيز علي المصري في حركة القومية العربية قد شجعتني الى ان ادرس المصادر المعاصرة بشكل نقدي ، وان اقارنها مع عزيز علي المصري نفسه ومع آخرين كانوا قد عرفوه[٣] .

ان هذه المقالة ، وهي حصيلة بحث مستفيض عن حياة عزيز علي ، تستهدف دراسة دوره في حركة القومية العربية ، وتستكشف شخصيته واخلاقه .

ان الكتاب العرب الذين ينسبون لعزيز علي بطولة حركة القومية العربية ، يبحثون ارتباطاته بها منذ فترة اول جمعية سرية «القحطانية» ، والتي كانت قد انشئت في اسطنبول حوالي ١٩٠٩ والتي شارك عزيز علي نشاطاتها كما ربطه بعضهم مع سليم الجزائري ــ حفيد احد المنفيين الجزائريين الذي صاحب عبدالقادر الجزائري الى دمشق بأعتباره المؤسس لتلك الجمعية[٤] ، على الرغم من ان آخرين يغفلون ذكر اسمه بين اعضائها[٥] .

انه من الصعوبة بمكان معرفة الاعضاء الكاملين للجمعيات العربية السرية ، لان معظم الاعضاء حاولوا اخفاء شخصياتهم ، ولكن اسم عزيز عليُ يظهر في قائمة اعضاء القحطانية لسجلات جمال باشا في المحكمة العسكرية في عالية ، والتي انعقدت في عام ١٩١٦ لتحاكم الزعماء العرب الذين شاركوا في

---

(٣) لقد استجوبت عزيز علي في القاهرة بتاريخ ١٣ ــ ١٤ نيسان ١٩٥٨ .
(٤) انطونيوس ، المصدر السابق ص‌ص ١١٠ ــ ١١٩ .
(٥) مصطفى الشهابي ، محاضرات عن القضية العربية ، القاهرة ١٩٥٩ ص‌ص ٦٩ ــ ٧٠ . كذلك امين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، القاهرة ١٩٣٤ . ج ١ ص‌ص ١٠ ــ ١١ .

فعاليات مناهضة للحكومة في سوريا ولبنان[٦] .

ولم يعلن اعضاء الجمعية القحطانية في الظاهر ، عن فكرة انفصال العرب عن الوحدة العثمانية على الرغم من ان البعض منهم قد اشار الى انه يجب ان يكون للعرب كيان خاص منفصل داخل اطار البناء العثماني العام .

انه من الصعوبة بمكان معرفة ماهية مناهج المنظمات العربية في مراحلها الاولى ، بالدقة ، لان الافكار القومية العربية لم تكن قد اتخذت شكلا «ثابتا» بعد . ويبدو ان الجمعيات العربية الاولى قد أوجدت بالاحرى ، كرد فعل لفشل الاتراك في ان يعاملوا الزعماء العرب معاملة الاعضاء المتساوين في منظماتهم الخاصة ، اكثر مما كانت منهاجا «محددا» للعمل .

اشار بعض الكتاب ، على اية حال ، الى ان الجمعية القحطانية كانت لها «خطة صلبة» مع افكار محددة ، تحديدا «جيدا» سندها . ان المنهاج الذي استخلص من قبل انطونيوس هو كما يلي : تكون الاقاليم العربية مملكة واحدة ببرلمانها الخاص وحكوماتها المحلية ولغتها العربية التي تستعمل في مؤسساتها وان تكون المملكة جزء من امبراطورية عربية تركية مشابهة في بنائها للامبراطورية النمساوية ــ الهنكارية ، وسيحمل السلطان العثماني في اسطنبول ، اضافة الى تاجه التركي ، تاج المملكة العربية كما يفعل امبراطور هبسبرك في فينا حيث يحمل تاج هنكارية[٧] .

---

(٦) ايضاحات : سجلات المحكمة العسكرية التي انعقدت من قبل الحكومة العسكرية في سوريا (عالية ١٣٣٤ و ١٩١٦) ص ١٦ . ايضا احمد عزت الاعظمي ، القضية العربية بغداد ١٩٣١ ، ص‌ص ٣ ــ ٣٥ . للاطلاع على تصريح قدمه عزيز علي الى سليم الجزائري معترضا ضد قيام اكثر من جمعية عربية واحدة .
(٧) انطونيوس ص ١١٠ ، حسن صعب ، العرب الفيدراليون في الامبراطورية العثمانية ، امستردام ١٩٥٨ ، ص ٢٣٤ . ويعزو الاخير الافكار الفيدرالية الى جمعية القحطانية والى عزيز علي بالذات . ويذهب للقول الى ان تلك الافكار قد اوجدت الاسس لمنهاج جمعية العهد التي نظمها عزيز علي كجمعية منفصلة عام ١٩١٢ .

وعلى كل حال ، فأن انطونيوس يغفل في اعطاء مصدر معلوماته ، ولاتعطى المصادر المعاصرة فكرة دقيقة عن ماهية خطـة الجمعية القحطانية ، بأكثر من دعوتها لحماية الحقوق العربية وتطوير الفعاليات الاجتماعية والثقافية بين العرب في اسـطنبول •

ان الافكار العربية الفدرالية المستقاة من المثل النمساوي ــ الهنكاري لم تصبح في الحقيقة موضع نقاش في الصحافة والدوائر السياسية حتى عام ١٩١٢ حتى اصبح الزعماء العرب اكثر وضوحا «عند النظر الى الطريقة التي يعرفون بموجبها علاقتهم بالسلطنة العثمانية[٨] • وبما ان جمعية القحطانية قد مثلت ، بالضرورة ، نفس الاهداف التي استهدفها نادي المنتدى الادبي ، وهـو تنظيم عربي ، اعترف به رسميا من قبل الحكومة العثمانية ، فقـد اصبحت الجمعية القحطانية غير فعالة خلال سنة واحدة ، وانضم معظم اعضائها الى نادي المنتدى الادبي •

وبعد عامين ، اظهر عزيز علي ، مثله الضباط العرب الاخرين ، مساوىء معينة في الحكومة العثمانية ، ولكنه لم يقم على ما يظهر ، بأية فعاليات ضد الحكومـــــة •

وقبل فترة وجيزة من ذهابه لليمن مع الحملة العثمانية ، وفي حديثه مع جمال باشا ، استنكر عزيز علي سياسة تركيا الفتاة تجاه العرب ، وحذره من نتائجها السيئة • ولكن جمال باشا الذي كان يكن تقديرا «خاصا» لقابلية عزيز علي العسكرية ، لم يشأ ان يلفت نظره الى الآثار السيئة التي ستتركها انتقاداته على الوحـدة العثمانية[٩] • ويبدو ان جمال باشا لم يسمع المزيد حول الموضوع ، في هذه المرحلة ، ولهذا وبناء على طلبه فقد التحق عزيز علي

(٨) انظر توفيق علي برو ، العرب والاتراك في العهـد الدستوري العثماني ١٩٠٨ ــ ١٩١٤ • القاهرة ١٩٦٠ صص ٣١٩ ــ ٣٢٢ •

(٩) جمال باشا ، ذكريات رجل دولة ، لندن ١٩٢٢ ص ٦١ ، ٦٢ •

بأركان عزت باشا في الحملة على اليمن عام ١٩١١ • فلوقت طويـل ، قاومت اليمن السياسة العثمانية القائمة على المركزية ، وقد اصر امامها على الاستقلال الداخلي • وبعد مجيء جماعة الفتاة الى السلطة ، قامت على اية حال ، محاولات لجلب الامام الى حظيرة النظام الجديد • الا ان هذه المحاولات فشلت ، وكان هدف حملة عزت باشا على اليمن هو اجبار الامام على الخضوع ، ولكنه لم يكن من السهل التقدم نحو صنعاء وفرض الشروط العثمانية على الامام وعلى الرغم من ان عزت باشا حقق نجاحات اولية في حملته ، فقد اثبتت المباحثات التي شارك فيها عزيز علي وسليم الجزائري بدور فعال ، انها اكثر اثرا في دفع الامام الى التعقل ، بدلا من القتال الفعلي •

وقد ارتفعت سمعة عزيز علي في الاقطار العربية ، ليس فقط لانه قـد انهى الخلاف الطويل نهاية ناجحة بالتوقيع على اتفاقية التاسع من تشرين الاول عام ١٩١١ ، بل وايضا «لان الاتفاقيـة بين عزت باشا وامـام اليمن اعترفت بأستقلال الامام الداخلي[١٠] •

وعلى اية حال ، فلم يكد عزيز علي يكمل بعثه في اليمن حتى شنت ايطاليا حملة على ليبيا ، واصبحت خدماته مهمة في قطر عربي آخر • فقد صدر اليـه الامر ان يتقدم ويذهب الى شـمال افريقيـا ••

وقام عزيز علي بدور في الدفاع عن برقة في ليبيا (Cyrenaic) بعـد ان انزل الايطاليون قواتهم في دارنه في ايلول ١٩١١ ، واظهر قابلية واضحـة في انزال خسائر كبيرة في العدو • وحينما تركت القوات العثمانية بقيادة انـور باشا ، القائد العام ، في برقة ، وعادت الى تركيا ، سلم انور باشا قيادة القـوات

(١٠) في دراسة معاصرة لحملة عزت باشا ، انظر عبدالرأس بن يحيى الوازعي ، تاريخ اليمن ، القاهـرة ١٩٤٧ صص ٣١٦ ــ ٣٢٢ • وللاطلاع على نص الاتفاقية انظر نفس المصدر صص ٣٧٥ ــ ٣٧٦ • انظـر ايضا توفيـق علي برو ، المصدر السابق صص ٢٤٠ ــ ٢٤١ •

المتبقية الى عزيز علي ، معترفا بشجاعته وقابلياته التنظيمية على الرغم من ان العلاقات الشخصية الباردة بين الرجلين اصبحت ملحوظة .

وقد بقي عزيز علي في قيادة الجيش العثماني الى ان عقدت معاهدة صلح بين ايطاليا والدولة العثمانية في تشرين الاول عام ١٩١٢ . لقد رجته القوات السنوسية المحلية ، التي واصلت الكفاح ضد الايطاليين ان يستمر في تقديم العون لهم ، ولكنه ولاسباب ستتضح فيما بعد ، فضل العودة الى اسطنبول .

ان محاولات عزيز علي العسكرية في الدفاع عن قطر عربي ضد الغزو الاجنبي قد زادت الى مدى ابعد ، من سمعته ، واوحت الى الشاعر الكبير احمد شوقي (توفي ١٩٣٢) بتمجيده في قصيدة رنانة بليغة بأعتباره «بطل برقة» .

عاد عزيز علي الى اسطنبول في وقت ازداد فيه التوتر بين الاتراك والعرب ، ووصل نقطة عالية من الاثارة ، دفعت عزيز علي الى تشكيل منظمة سرية عرفت بـ (العهد) اقتصرت على ضباط الجيش ، وقد اعتبرت المصادر العربية هذه الجمعية اكثر الوسائل فعالية في نشر الافكار العربية الانفصالية ، شأنها شأن جمعية الفتاة ، وفي جمعية سرية اخرى ، نشرت مبادئها بين المدنيين . ويشير الكتاب العرب الى انه كانت هناك صلة بين الجمعيتين ، مما ساعد على تنسيق نشاطاتهما في الاراضي العربية[11]

ومنذ الوقت الذي عاد فيه عزيز علي الى اسطنبول عائدا «من برقة في عام ١٩١٢ ، وحتى ابعاده الى مصر ١٩١٤ ، صورته المصادر العربية بأعتباره اشهر ضابط عربي في اسطنبول ، لديه الشجاعة لان يتحدى الحكومة العثمانية في الدفاع عن حقوق العرب .

---

(١١) مصطفى الشهابي ص‌ص ٧٨ — ٨٠ . داغر ، مذكراتي ص‌ص ٣٥ — ٣٦ ، امين سعيد ج ١ ص‌ص ٤٦ — ٤٨ ، انطونيوس ص‌ص ١١٩ — ١٢٠ ، واحمد عزت دروزه ، حول الحركة العربية صيدا ١٩٥٠ ص‌ص ٣٢ — ٣٣ ، وانظر ايضا ايضاحات ، التي تنسب الى الجمعية اهدافا ثورية ، ص‌ص ١٨ — ٢٠ .

وصلت شعبية عزيز علي قمتها عندما اصبح ضحية انور باشا في اجراءاته المستعجلة للقضاء عليه ، وهي خطوة اعتبرها الرأي العام العربي المعاصر انها استهدفت ابعاد كل الضباط العرب من الجيش العثماني . وحينما تم اعتقال عزيز علي فعليا « ، قدم جميع العرب الموجودين في اسطنبول احتجاجا » ضد الزعماء الاتراك .

ان قصة اعتقال عزيز علي يمكن تلخيصها كما يلي :

في التاسع من شهر شباط ١٩١٤ ، وحينما كان عزيز علي يهم بمغادرة فندق توكاتلين بعد الغذاء تبعه ثلاثة من افراد الشرطة السرية ، واقتادوه الى مركز الشرطة المركزي في اسطنبول .

ان انباء الاعتقال قد احدثت هياجا « كبيرا » بين المجموعة العربية والى احتجاجات ضد الحكومة قدمت الى الهيئات الدبلوماسية في اسطنبول ، وتبع ذلك قيام ارهاب ومظاهرات في الشوارع .

ان التهمة الموجهة ضد عزيز علي ، والتي اعلنت رسميا ، لم تقم على اساس فعالياته في الجمعيات السرية ، بل لانه فشل في اعطاء تفاصيل أنفاق ٢٠ــ٣٠ الف دينار تسلمها من انور باشا ، كأموال حكومية حينما ترك برقة . لقد اتهم عزيز علي بأبتزاز ذلك المبلغ ، ولكن المصادر العربية تشير الى ان مشاعر التعاطف التي اظهرها عزيز علي تجاه العرب كانت السبب الحقيقي ، وانه خلال المحاكمة التي جرت بشكل سري ، اتهم بنشاطات معادية للحكومة ، كمطالبته بتحقيق الاستقلال العربي ، وبأقامة مملكة عربية في شمال افريقيا [12]

لقد كان توقيف عزيز علي ، بالنسبة لكثير من العرب دليلا ، ابعد على ان للقادة الاتراك غايات خبيثة بعيدة المدى ، تجاه رعاياهم ، بدلا ، من

---

(١٢) اسعد داغر ، ثورات العرب ص‌ص ١٠٣ — ١٠٨ ، انطونيوس ص‌ص ١٢٠ .

الاعتراف بخدماتهم للدولة • ولهذا فقد نهض العرب في اسطنبول ، جميعهم ضد اجراء الحكومة ، ورجوا من قادتهم مثل عبدالحميد الزهراوي الذي كان قد عين عضوا في مجلس الشيوخ العمل على اطلاق سراحه • وتصف الكتابات العربية المعاصرة مدى السخط الذي ابداه العرب ، كما ابدته ايضا المجموعات غير التركية في اسطنبول ازاء التوقيف غير العادل لعزيز علي وقد مارست هذه المجموعات الضغط على الحكومة العثمانية من اجل اطلاق سراحه • لقد تراوح الضغط بين الانتقاد في الصحف الى الاحتجاجات الرسمية التي قدمت الى البعثات الدبلوماسية[١٣] •

وقد ادى هذا الضغط الى تخفيف عقوبة الاعدام في الخامس عشر من نيسان ١٩١٤ ، الى عقوبة السجن لمدة خمس عشرة سنة مع الاشغال الشاقة • ونجحت الضغوط فيما بعد ، على الحكومة العثمانية ، في اطلاق سراح عزيز علي في ٢١ نيسان ، وفي اليوم التالي ابحر متجها نحو مصر ، حيث استقبل بحفاوة بالغة عند وصوله •

ان دراسة نقدية لنشاطات عزيز علي ستعطي ، على وجه الاحتمال ، صورة مختلفة عن تلك التي رسمت من قبل معاصريه ان على مثل هذه الدراسة ان تأخذ بنظر الاعتبار خلفيته العائلية ، وتربيته في مصر قبل ذهابه الى تركيا ، لان مثل هذه الخلفية كان لها تأثير كبير على اعماله المستقبلية في اسطنبول •

ان اسلاف عزيز علي لم يكونوا عربا في الاصل ، ولم يكونوا على وجه الدقة مواطنين مصريين ، لان كلا من ابيه وجده كانا معروفين بانهما

---

(١٣) انظر : جي. ن. كوش ، وهارولد تمبرلي ، الوثائق البريطانية عن اصول الحرب ١٨٩٨ ــ ١٩١٤ (لندن ، دائرة الوثائق البريطانية الملكية ، ١٩٣٣ جـ ١٠ ، الفصل الثاني ، صص ٨٣٤ ــ ٨٣٥ .

شراكسة على الرغم من ان زكريا قد ولد في مصر[١٤] •

ان اسم شاهيي ، وهو اسم العائلة الشركسية كان معروفا بصورة جيدة في مصر ، قبل مولد عزيز علي ، غير ان عزيز علي ، بعد ان استقر في اسطنبول استعمل لقب «المصري» او «القاهري» من اجل ان يميز نفسه عن بقية ضباط الجيش الناطقين بالعربية والعاملين في خدمة الحكومة العثمانية • وهكذا فقد كان عزيز علي مدركا ، بصورة جيدة ، بأنه لم يكن عربيا ، بالاصل ، على الرغم من انه ولد في مصر ، وان لسانه كان عربيا • ان اصل عزيز علي الشركسي ، وكونه مسلما ، مخلصا ، قد جعلته بصورة متكافئة مخلصا لمصر ، وللخلافة العثمانية ، مادامت مصر لا تزال بصورة رسمية تحت السيادة العثمانية • لقد كان الرأي العام المصري في تلك الفترة الى جانب ارتباط مصر بالامبراطورية العثمانية ، ولهذا فقد كان من الطبيعي للشاب عزيز علي ، بعد وصوله الى اسطنبول ان يشعر انه في بيته في العاصمة قبل ان ينغمر في الصراع مع رفاق مدرسته من الاتراك • ولايقل عن ذلك اهمية تأثير المناخ المصري السياسي في افكار عزيز علي قبل مغادرته الى اسطنبول في عام ١٨٩٨ ، وكانت مصر مختلفة عن بقية الاقطار العربية التي كانت تعاني من الفوضى العثمانية ، اذ كانت تحت السيطرة البريطانية منذ عام ١٨٨٢ ، على الرغم من انها بقيت رسميا ضمن الامبراطورية العثمانية • لقد مارس

---

(١٤) انظر الاهرام القاهرية ٢١ تموز/١٩٥٩ . كان اسم جد عزيز علي سالم عرفات وهو تاجر بصري كان يزاول التجارة سنويا في القفقاس عن طريق البحر الاسود . وان شريكه في هذه المناطق كان قفقاسيا هو حسن بيك الذي اعطى في الاخير لعرفات يد اخته مدخلا اياه بصورة رسمية في نفس الوقت في قبيلته . وقد حدث كل هذا اثناء حكم السلطان محمود الثاني وان الجيل الثالث لهذا الاتحاد نزح الى القسطنطينية ومنذ ذلك الحين وبعد ان استقروا في مصر فقد باعوا عبيدهم ، واصبحوا بهذا الوقت اكثر ميلا للشركسية منهم للعرب ، على انهم كانوا مدركين ومحتفظين بصلاتهم بالبصرة ، انظر : استورز (المشرقيات ، الاستشراق) ص١٧٩ .

الناس بعض الحرية ، وعاشوا في رفاه اقتصادي تحت الحكم البريطاني* غير انه في نهاية عهد كرومر (١٨٨٣ــ١٩٠٧) اصبحت الحركة الوطنية المصرية التي قادها مصطفى كامل (١٨٧٤ــ١٩٠٨) قوية الى درجة كان باستطاعتها معها أن تتحدى الاحتلال البريطاني . لقد حمل مصطفى كامل من فرنسا التي درس فيها ، الافكار الاوربية عن القومية واستهدف تحقيق استقلال مصر . وكخطوة عملية نحو ذلك الهدف النهائي ، فقد تبنى عودة مصر الى السلطنة العثمانية املا ، في ان يكون الارتباط مع العثمانيين سببا ، في تحرير مصر من السيطرة البريطانية .

لقد كان لافكار مصطفى كامل اثاراً بعيدة على مواطنيه وخصوصا ،

(*) ان الحرية النسبية ، والرفاه النسبي الذي يتحدث عنه المؤلف ، جاءا اثر الفوضى الكبيرة التي نتجت عن الديون التي ورطّ بها الخديوي اسماعيل لا تزيد عن (٣) ملايين جنيه مصري ، في حين بلغت القروض اسماعيل لا تزيد عن (٣) ملايين جنيه مصري ، في حين بلغت القروض في نهاية عهده نحوا من (١٠٠) مليون جنيه وبفوائد عالية ، ولجهات متعددة الاطراف .

فلما جاء البريطانيون بعد قضائهم على عرابي ، وحدوا الديون واخضعوا الاقتصاد المصري الذي كان يقوم اساساً على زراعة القطن والاستفادة من عائدات قناة السويس ، الى الاقتصاد البريطاني . فأنتعشت طبقة من الاقطاعين الكبار ممن كان يقوم بزراعة القطن ، كما استفاد التجار الكبار الذين كانوا يقومون بدور الوسطاء . اما اغلبية الشعب العاملة في الريف او في المدن فلم تتحسن حالتها الا قليلا عما كانت عليه ايام الخديوي اسماعيل .

وبالنسبة للحرية النسبية التي شهدتها مصر آبان فترة الاحتلال فأساسها ان بريطانيا كانت تريد فصل مصر عن الدولة العثمانية ، وهي لهذا السبب شجعت النزعات الانفصالية وكانت مصر ملجأ للاحرار الذين يناوئون السلطنة العثمانية : فقد قامت صحافة نشطة ، وقد استفادت بريطانيا من ذلك ، لان هؤلاء اللاجئين الاحرار كانوا يوجهون انتقاداتهم للدولة العثمانية من مقرهم في مصر : فاذا ما تجرأ البعض وانتقد البريطانين ابعدوه عن مصر . المترجمان .

بأثارته المشاعر العاطفية والدينية للشعب المصري ، ولكونه متمتعاً بجو من حرية التعبير عن الرأي والتأييد المبدائي للخديو عباس الثاني الذي كان معارضا لحكم كرومر ، فان مصطفى كامل قد دعا الى انهاء الاحتلال البريطاني ، واعادة ارتباط مصر بالخلافة العثمانية فلاقت دعوته استجابة حسنة بين المصريين .

لقد وصلت الافكار المعارضة للاحتلال البريطاني الى درجة عالية عندما شارف عهد كرومر على الانتهاء قبيل وفاة مصطفى كامل عام ١٩٠٨ . وفي هذا الجو نشأ عزيز علي وتلقى تعليمه الاول قبل ذهابه الى الخارج لمتابعة الدراسة [١٥] .

وفي البداية ، وكما اوضح عزيز علي القصة بنفسه ، فقد كان يرغب بالدراسة في فرنسا ، ليصبح ضابطا عسكريا من اجل طرد البريطانيين من مصر [١٦] .

لقد اعتبرت فرنسا انذاك في مصر ، انها مهد الحرية ، وهي القطر الذي استنجد به مصطفى كامل من اجل الدعم ضد الاحتلال البريطاني ، ولكن سمعة فرنسا قد هبطت عندما استمر الاحتلال البريطاني بغير معارضة ، وفي نهاية المطاف ، وقبل اربعة اعوام من موت مصطفى كامل اتفقت فرنسا مع انجلترا من عام ١٩٠٤ ، واعترفت بالاحتلال البريطاني لمصر ، مقابل اطلاق يد فرنسا حرة في مراكش .

ولهذا فقد كان من الطبيعي لهذه الاسباب ان فضل عزيز على الدراسة في تركيا بدلا من فرنسا ، واضافة الى ذلك فقد علم ان الخبراء العسكريين الالمان

---

(١٥) من المحتمل أن يكون عزيز علي قد ولد في عام ١٨٧٩ أو ١٨٨٠ ، ذلك ان اللواء ابراهيم الراوي الذي كان قد عرف عزيز علي في اسطنبول قبل الحرب العالمية الاولى ، وخدم فيما بعد كمعاون له في الحجاز عام ١٩١٦ ، قد اخبر المؤلف انه عندما تخرج من الكلية العسكرية عام ١٩٠٦ كان عمر عزيز علي اكثر من (٢١) سنة . وفي مقابلة مع مراسل الاهرام في (٢١ تموز ١٩٥٩ ص ٣) قال عزيز علي ...... انه كان في حوالي سن الخامسة والعشرين عندما اكمل تدريبه .

(١٦) انظر ايضا الاهرام في ٢١ تموز ١٩٥٩ ص٣ .

الذين تمتعوا بسمعة عالية في الامبراطورية العثمانية قد وظفوا للتعليم في الكلية العسكرية العثمانية ، وهو امر اخر حبب اليه الذهاب الى العاصمة العثمانية •

وجد عزيز علي نفسه في اسطنبول في مناخ ملائم ، حيث كان في استطاعته ان يعرب عن افكاره بحرية ضد الاحتلال البريطاني ، كما يستطيع ان يعبر عن رغبته في ارتباط مصر بالسلطنة العثمانية •

ان موقفه الودي ازاء السلطنة العثمانية قد جعله محبوبا من قبل زملائه العثمانيين واساتذته الالمان خلال دراسته في الكلية العسكرية • وقد ميز عزيز علي نفسه كطالب عسكري قدير ، وتابع دراسته في كلية الاركان متخرجا قبل اربعة اعوام من قيام الثورة التركية لعام ١٩٠٨ ، وحائزا على الامتياز ، وكان تأثيره كبيرا على الجنرال الالماني الذي كان يدرسه في كلية الاركان ، لدرجة ان الجنرال حينما حظى بمقابلة السلطان رشح عزيز علي لمنصب عسكري رفيع ، وكلف عزيز علي ، بعد تخرجه من كلية الاركان بالخدمة في مقدونيا حيث اظهر نجاحا مرموقا في مطاردة العصابات البلغارية(*) وفي محاربته لليونانيين والبلغاريين وعلى الحدود الالبانية •

ارتبط عزيز علي بجمعية الاتحاد والترقي السرية خلال خدمته هذه في البلقان والتي كان بعض زملائه في الدراسة اعضاء فيها ، وقد ساهم في نجاحها النهائي ، وحينما تحرك الجيش في عملياته على اسطنبول ، كما يقول جمال باشا ، ضد الحركة الرجعية التي قامت في الحادي والثلاثين من شهر اذار — الى ١٣ نيسان ١٩٠٩ ، كان عزيز علي يقود احدى الوحدات العسكرية ، وبعد ان استولت القوات على جسر (غالطة) قاتل عزيز علي ضدثكنات (نقونا) واظهر مهارة كثيرة في اخراج المتمردين منها [١٧] •

---

(١٧) انظر جمال باشا ص ٦٠ــ٦١ • انظر ايضا فرانسيس ماكولو ــ سقوط عبدالحميد ، لندن ١٩١١ ، ص ٢١٨ ــ ٢١٩ •

(*) لا نتفق مع رأي المؤلف بتسميته لحركة التحرر الوطني البلغاريه بأسم (العصابات البلغارية) والتي ناضلت ضد الاستبداد العثماني والاضطهاد القومي •

وبعد ان اعيدت الحياة الدستورية ، قامت فترةقصيرةمن الاخاء تمتعت المجموعات الوطنية المختلفة التي توقعت ان عهدا من الحرية والمساواة سيبرز ، ولكن المسألة ، في الحقيقة ، كانت اكثر تعقيدا ، مما تصوره قادة تركيا الفتاة (C. U. P.) ان هؤلاء لم يكونوا مستعدين للتصدي لحل المشاكل القومية •

ان المتطرفين من هؤلاء القادة ممن تبنى سياسة التتريك كانوا يستثيرون القوميات الاخرى بأجراءاتهم ، ولقد فشل حتى الزعماء الثلاثة الرئيسيون : طلعت ، انور ، جمال ، في الاتفاق على هدف موحد • لان طلعت كان يبدو انه فضل العثمانية ، في حين كان انور متعاطفا ، مع حركة الجامعة الاسلامية ، اما جمال فقد شجع فكرة القومية ، على الرغم من انهم اتفقوا جميعا ، على الحفاظ على الوحدة العثمانية •

ان عدم الاتفاق على سياسة قومية عامة ، ادى الى زيادة الفوضى في الاراء ، مما شجع المجموعات القومية المختلفة ان تنشد تحررها في الانفصال النهائي عن الوحدة العثمانية •

وراى عزيز علي كان عضوا ، فعالا ، في جمعية تركيا الفتاة ، ومؤيدا ، امينا ، للوحدة العثمانية ، الخطر العظيم في سياسة التتريك واتباع التجديد • لقد كان عزيز علي على علاقة طيبة مع عدد محدود من زعماء المجموعات القومية ، وحاول ان يتوصل الى تفاهم بينهم وبين جماعة تركيا الفتاة ، لانه وصل الى نتيجة فحواها ان خير وسيلة من مجتمع معقد مثل الامبراطورية العثمانية لحفظ السيادة ليس بأتباع اساليب تستهدف كبح القوميات ، بل بالاعتراف بها ، واعتبار كل منها وحدة مستقلة داخل اطر الكيان العثماني •

ان الايمان بصواب هذه الفكرة ، كما يبدو ، قد دفع عزيز علي الى ان يبشر بها بين اقرانه ، وقد دعا بعضهم الى مناقشتها في اجتماع عقد في

منزله(١٨) .

ان مثل هذه الفكرة المنبعثة من شخص لم يكن تركياً في الاصل قد اثارت ارتياب منافسيه في جمعية تركيا الفتاة ، واعطت الانطباع انه يعمل من اجل قضية القوميات الناقمة . كما ان زياراته للمنتدى الادبي ، وهو ناد ثقافي عربي ، يعج بالقادة العرب والعثمانيين ، قد اعطى الانطباع انه كان مناصرا لقضية المجموعة العربية التي كان يتكلم لغتها .

انضم عزيز علي في هذا الوقت الى الجمعية القحطانية العربية السرية ، التي تأسست عام ١٩٠٩ من قبل صديقه سليم الجزائري ، ويبدو ان اسماء اعضائها اصبحت معروفة بالنسبة للحكومة(١٩) .

ان وجهات نظر عزيز علي حول القضية القومية ، قد ساهمت بدرجة لاتقل عن علاقته الخالية من المرونة مع قادة جمعية تركيا الفتاة ، في فشل الحكومة في تقدير خدماته الى الدولة(٢٠) .

ولعل ما أضر بعزيز علي اكثر من أي شيء اخر ، هو نزاعه مع انور باشا ان اسس هذا النزاع كانت شخصية كما يبدو ، لان عزيز علي كان مستمرا في انتقاد انور حتى في الوقت الذي كان لايزال فيه فعالا ، في دوائر جمعية تركيا الفتاة . وحينما كان الاثنان في برقة استهجن عزيز علي كون انور باشا هو رئيسه العسكري الاعلى ، وابدى ملاحظات مستهجنة ضده بين مجموعة من الاتراك والعرب .

وحينما عاد انور الى اسطنبول وزيرا ، للحرب ، استمر عزيز علي

(١٨) اسعد داغر ، مذكراتي ص ٣٦ .
(١٩) انطونيوس ، ص ١١١
(٢٠) يرتبط بهذه الحقيقة ، ان جمال باشا لمح بقوله (. . . حتى هذا الوقت (١٩٠٩) فاني لم أعرف ان هذا الرجل (عزيز علي) كانت له علاقات عربية ...) انظر جمال باشا ، مذكرات ص ٦١ .

في مهاجمته ، على الرغم من ان انور قد اصبح رئيسا لدائرته . اما العرب الذين ادعوا أن عزيز علي هو عضو في مجموعتهم فقد اتحدوا في استنكار انور وصحبه مما دفع بعدد من اعضا جمعية تركيا الفتاة الى اتهام عزيز علي بأثارة المشاعر العربية وتبنيه لفكرة الاستقلال العربي . وهكذا ، فعلى الرغم من ان العنصر الشخصي كان العامل الاساس في الصراع بين الضابطين العسكريين ، فان هذا العامل قد استغل بصورة تامة من قبل المنافسين القوميين.

عبر جمال باشا في مذكراته عن الشعور الحقيقي للقادة الاتراك عندما قال (.... حينما اصبح انور باشا في النهاية وزيرا ، للحرب ، كان عزيز علي الى جانبه على وجه الدقة . ولكنه لم يستطع تحمل حقيقة كونه انه كان مزاملا لانور في الكلية العسكرية وقدم عملا «رائعاً» واظهر درجة عالية من الوطنية، ويبقى مقدما ، بسيطا ، في اركان الحرب ، بينما يصبح منافسه وزيرا للحربية، وخرج بنتيجة ان التعاون مع الترك لم يحقق المجد ... له . (٢١) .

ان هذه الملاحظة تعكس جانبا ، واحدا ، من اخلاق عزيز علي الحقيقية وتعبر عن موقفه أزاء الحكومة العثمانية . على ان هناك ، على اية حال ، جانبا «آخر للعملة ان امانة عزيز علي قد دفعته الى الاعتقاد انه اذا اريد الاحتفاظ بالوحدة العثمانية ، فان شخصية المجموعات القومية المختلفة يجب ان تنال الاعتراف ، وقد دعى الى هذا المبدأ بأعتباره خير ضمان ضد الميول التي تستهدف تمزيق الامبراطورية . ولما عقد العرب مؤتمرهم الاول في باريس (حزيران ١٩١٣) ، واصدروا عدة قرارات مطالبين بتحويل السلطات الى الاقاليم ، انتقد عزيز علي فكرة عقد مثل هذا المؤتمر في عاصمة دولة اجنبية وانتقد العرب لتقدمهم بمطالبهم في وقت كانت فيه الحكومة العثمانية منشغلة في حرب مع الحكومات البلقانية ، على الرغم من انه كان على اتفاق

(٢١) انظر : جمال باشا صفحات ٦٢_٦٣

تام مع المبادىء الاساسية التي اصدرها ذلك المؤتمر [٢٢] • واخيرا ، فأن الاعتقاد الثابت بالوحدة العثمانية ، قد دفع عزيز علي الى ان ينضم الى جمعية العهد المؤلفة من ضباط الجيش المختلفي الاصول القومية من اجل ان يحقق الوحدة بين الاتراك والعرب [٢٣] •

ان ازالة الصراع العربي التركي ، الذي أدرج بصورة غامضة في منهاج جمعية العهد كان يقوم في طبيعته على اقامة مشروع فيدرالي شامل يتابع النموذج النمساوي الهنكاري (اوسكليك Auscleic) [٢٤] حيث تنال القوميات بموجبه الاستقلال الذاتي •

لقد اخبرني عزيز علي بكل اخلاص ، ان الاعضاء الاصليين في جمعية العهد كانوا من الاتراك والعرب ، ولكنه بعد مغادرته اسطنبول سيطر عليها العرب الذين اصبحت اهدافهم ثورية بشكل واضح اثر فشل العثمانيين في تنفيذ الاتفاقية التي تم التوصل اليها بين العرب والقادة الاتراك اثر مؤتمر باريس لعام ١٩١٣ •

ان التحطم النهائي لعلاقات عزيز علي مع قادة تركية الفتاة ، قد حدث بالطبع ، حين تم توقيفه ومغادرته اسطنبول في شهر نيسان ١٩١٤ والتي سبق ان اشرنا اليها • انهذه الحادثة التي لم يكن عزيز علي ليرغب فيها ، قد وضعته في موقع مختلف في اعين اولئك الذين يعملون من اجل التعاون التركي العربي ، لانها قد اعطت انور باشا عذرا ، لان يستهجن عزيز علي بأعتباره قائدا ، ثوريا عربيا ، عمل على تطوير فكرة الثورة العربية ، على الرغم من انه كان من الواضح جدا ان الصراع كان نتيجة منافسة شخصية وغيرة بين

(٢٢) احمد شفيق باشا ، مذكراتي في نصف قرن (القاهرة ؟) ج ٣ ص ٨٥ •

(٢٣) لقد اخبر طه الهاشمي الذي كان سكرتيرا لجمعية العهد (والذي اصبح فيما بعد رئيسا لاركان الجيش ثم رئيسا للوزراء في العراق) المؤلف انه اقترح على عزيز علي ان يعلن عنها جمعية العهد مادام الهدف هو ازالة الاختلافات بين العرب والترك •

(٢٤) جمال باشا ، ص٦٠ •

الرجلين ، وقد ادعى الزعماء العرب انهم انقذوا عزيز علي من الموت برجائهم الى البعثات الدبلوماسية الاجنبية من اجل انقاذه ، على الرغم من ان العناصر التركية المعتدلة ، في الحقيقة ، لم تكن مقتنعة ، بأية حال ، بتصرف انور المستهدف الى تحطيم عزيز علي • وكان جمال باشا الذي استشاره اجراء انور الانتقامي ، هو الذي تدخل ليضع نهاية له • وكما اوضح جمال باشا في مذكراته ، فقد لاحظ ان الرأي العام قد ادان انور باشا بقسوة اكثر مما ادان به عزيز علي ، وهو لهذا السبب تحرك لانقاذه على الرغم من ان عزيز علي قد اصبح بالنسبة له ثوريا ، عربيا ، • وكتب جمال الى انور باشا الرسالة التالية : —

عزيزي انور •••••••

مع عدم اهمال كل الادلة التي جمعتها المحكمة العسكرية ضد عزيز علي بك ، وحقيقة ان ذلك الحكم قد صدر ضده ، فأنك انت الذي يدينك الرأي العام •

ان اتهامك في هذه الحالة سيسبب لك اذى يزيد الف مرة مما سيعانيه عزيز علي من بقائه بضع سنين في السجن • رجاء ، حاول ان تحصل له على عفو امبراطوري وسوف اتعهد بأنه يترك اسطنبول ولن يعود اليها مرة اخرى

واضاف جمال ، انه في اليوم التالي خابرني انور باشا ليقول ان جلالته قد عفا عن عزيز بك [٢٦] •

وعندما زار اخو عزيز علي ، جمال باشا ليشكره على ذلك ، نصحه ان يترك عزيز علي البلاد حالا ، ويتوجه الى مصر ، وان يبتعد عن السياسة التركيه •

(٢٥) جمال باشا ، ص ٦٤ •

(٢٦) يقول ت • ي لورنس في كتابه (اعمدة الحكمة السبعة ص٧٥) ان عزيز علي قد انقذ من قبل ، جريدة التايمس واللورد (كتشنز) أنظر ايضا ستورز ، مشرقيات ، ص ١٧٩ •

وانتهى جمال الى القول ، لقد سمعت اخيرا ، انه على الرغم من ان عزيز علي بك قد اعطاني كلمة الشرف في وقته ، فأنه قد وضع نفسه في خدمة الشريف حسين خلال الحرب العالمية ، حينما ــ نهض الاخير ضد الخلافة •••• واليوم فانني أنا الذي لا استطيع ان اسامحه (٢٧) •

اعطى طرد عزيز علي من العاصمة العثمانية ، الانطباع الى العالم الخارجي بأن فعالياته الثورية كانت الاسباب الرئيسية للخلاف الذي تطور بينه وبين قادة تركيا الفتاة ، على الرغم من ان صراعه مع انور باشا كان معروفا «بصورة واضحة • (٢٨) •

وهكذا ، فحين اندلعت الحرب العالمية الاولى ، اتصلت عناصر معادية الى الدولة العثمانية بعزيز علي ، داعية اياه الى ان يشارك في الفعاليات الثورية ضد الحكومة • ولكنه ــ كما يبدو ــ قد فضل البقاء في القاهرة في خمول نسبي ، على الرغم من انه قد يكون قد تفوه او كتب تعليقات يستهجن فيها انور باشا (٢٩) •

---

(٢٧) جمال باشا ، ص٦٤ •

(٢٨) كتب السير • ل • مالت ، السفير البريطاني في تركيا الى السير ادورغراي في ٢٤ شباط ١٩١٤ « •••••• لقد ادعى اصدقاء عزيز علي ان كره انور باشا كان له دور كبير في توقيفه ، ولكنه من الواضح مما تلقيته من مصادر اخرى بأن القضية في حقيقتها مسألة سياسية . فليس هناك من شك ان عزيز علي بك كان احد العناصر الرائدة بين مجموعة من الشبان العرب ضباطا ومدنين ، ممن لم يقتنع بسياسة الحكومة التركية الحاضرة . انه من الصعوبة بمكان الحكم على اهمية هذه الجماعة ، ولكنه قد توفر الى علمي ان بعضا منهم على الاقل ، يرتبطون بجماعة تتميز قليلا او كثيرا بعلاقاتها لتنظيم حركة قد تستهدف فصل المنطقة الكاملة من الموصل الى الخليج العربي عن السيطرة التركية . كوش وتمبرلي المصدر السابق ج ١ ، القسم الثاني ، ص ٨٣٣ •

(٢٩) ايضاحات ص ٢٠ــ٢٤ •

لقد اتهمته المحكمة العسكرية التي اقامها جمال باشا في سوريا في عام ١٩١٦ ، على اية حال ، بتنظيمه جمعية ثورية في القاهرة ، ونشره دعاية ضد الحكومة العثمانية ••

ان استمرار ايمان عزيز علي بالوحدة العثمانية قد ظهر في مناسبة اخرى حينما ثار الشريف حسين في مكة عام ١٩١٦ • فقد كان هناك حماس متسع بين القوميين العرب الذين املوا ان هذه الثورة ربما تحقق في النهاية الطموحات القومية العربية ، وابرزوا عواطفهم بوضوح عنها • ان بعض الضباط العرب ، الذين اما ان يكونوا قد هربوا من الجيش العثماني ، او كانوا سجناء حرب لدى البريطانيين والتحقوا بالجيش الشريفي • وكان متوقعا ، في الدوائر العربية والبريطانية ان يستغل عزيز علي هذه الفرصة ، مادام يتمتع بسمعة القائدالثوري اللامع • وقد دعى بالفعل للمشاركة في الثورة من اجل تحقيق الاستقلال العربي غير ان عزيز علي ، على اية حال ، تلكأ في الاشتراك في الثورة ، لانه كما اوضح لي شخصيا انه ما كان يعرف بصورة عامة فيما اذا كان الشريف حسين قد اشعل الثورة ليمنع احتلال الحجاز من قبل قوة اجنبية ، او لكي يدافع عن سلطة السلطان من اجل حصوله على الاستقلال •

اتصلت السلطات البريطانية في القاهرة بعزيز علي لكي يقدم خدماته الى الشريف حسين ، ولكنه فضل اولا ، ان يستكشف حالة الشريف منخلال نوري السعيد وهو عضو في جمعية العهد كان قد اسر من قبل البريطانيين وارسل الى القاهرة كتب نوري السعيد بعد وصوله الى الحجاز الى عزيز علي حاثا اياه ان يلتحق بالقوات الشريفية ولكن دون ان يوضح له اهداف الثورة • وهكذا فقد ذهب عزيز علي الى الحجاز وقابل الشريف حسين ليستكشف موقف الثورة ، ويتعرف على الاسباب التي أدت الى انفصاله عن الحكومة العثمانية • واوضح عزيزعلي، وجهات نظره حول العلاقات التركية العربية بطرحه الى الشريف وقال ••••• انه لايفضل الانفصال الكامل عن الخلافة العثمانية ••••• كما قال عزيز ايضا

انه نصح الشريف ان يكون الهدف المباشر للثورة هو منع انتشار العداوة بين بريطانيا وتركيا الى الحجاز ، والحصول في النهاية على الاستقلال العربي الذاتي ضمن الوحدة العثمانية [٣٠] • وحين وجد الشريف حسين ان هذا الضابط الشاب معتد برأيه الى حد كبير لم يعد متلهفا لان يستخدمه في منصب عسكري قيادي عال ، ولكن السلطات البريطانية ، التي لاحظت حاجة الشريف الى ضباط عسكريين مدربين ، نصحته ان يستخدم عزيز علي ، كما يستخدم ضباطا ، عسكريين عربا آخرين بسبب تدريبهم المناسب في الجيش العثماني المنظم • واستخدم الشريف حسين الضباط العرب شريطة ان يخدموا تحت امرة ابنائه • وهكذا تم الاتفاق على اعطاء القيادة الاسمية للجيش النظامي الى الشريف علي بن الملك حسين الاكبر ، والمرابط في (لابغ) وهي ميناء بحري استعمل من قبل البريطانيين لتجهيز السلاح والمعدات الى القوات الشريفية ، وان تعطى الادارة الفعلية للعمليات للضباط العرب • وقبل عزيز علي ، الذي رشح من قبل المستشارين البريطانيين ، على مضض ان يصبح رئيسا ، للاركان في ايلول عام ١٩٦ [٣١] •

وما كاد عزيز علي يبدأ بممارسة عمله بكفاءة ، حتى تطور الخلاف بينه وبين الشريف حسين • كتب انطونيوس ، ان الشريف حسين كان سيدا ، صعبا ، بالنسبة لعزيز علي ، المحب الى ابعد الحدود للكفاءة ، وقد تولد الخلاف نتيجة لهذا[٣٢] • وكان هذا الخلاف ، كما اعتقد السبب في مغادرة عزيز علي للحجاز بعد ثلاثة اشهر من وصوله •

---

(٣٠) مقابلة المؤلف مع عزيز علي ، انظر ايضا تصريحاً بهذا الخصوص لدى فائز النصيب ، مذكراتي عن الثورة العربية (دمشق ١٩٥٦) ص ٢٣٨ .

(٣١) تي ، أي لورنس ، اعمدة الحكمة السبعة ص ٧٤ــ٧٥ • انظر ايضا ستورن شرقيات ص ١٨٤ ــ ١٨٥ .

(٣٢) انطونيوس ، ص ٢١٢ •

ويبدو هذا السبب ، على الرغم من اهميته ساذجا ، عند محاولة ايضاح اسباب ابتعاد عزيز علي عن ثورة غرضها تحقيق الهدف القومي العربي • فلو ان هدف الثورة العربية هو تحقيق مثل عزيز علي القومية ، فان النتيجة التي لابد منها ستكون اخضاع اهدافه القومية الى •••••• (حبه للكفاءة) ، والى الصراعات الشخصية [٣٣] • ونحن لذلك السبب ميالون للاعتقاد انه لابد ان تكون هناك اسباب اكثر اهمية لمغادرته الحجاز •

ان اهداف الشريف حسين ، كما اوضحت في اعلانه بتاريخ ٢٦ـ حزيران عام ١٩١٦ ، الذي وجهه الى العرب ، لم تكن لتوضح تماما ، فيما اذا كان قد قصد ان يفصل الحجاز عن السلطنة العثمانية او ان يعلن استقلال جميع الاراضي العربية [٣٤] • وهكذا فقد اصبح هدف الثورة ــ بدون شك ــ موضع لنقاش بين الضباط في رابغ ، وقد كان هناك اختلاف في الرأي فيما اذا كان على الشريف حسين ان يكتفي بتحرير الحجاز من الحكم التركي ، او ان يقوم فيما اذا تم تحرير الحجاز بالعمل لابعاد الاتراك من الاراضي العربية الاخرى • واخبرني عزيز علي انه لم يكن مدركا ، لاهداف الشريف حسين على الرغم من ان انطونيوس يشير الى ان عزيز علي قد اخبر بصورة خاصة بمراسلات حسين مع مكماهون [٣٥] • وقد اوضح عزيز علي ايضا ، انه كان قد اخبر الشريف حسين انه لايجد الانفصال الكامل عن الامبراطورية العثمانية ، وان

---

(٣٣) كتب ستورز في مذكراته ان عزيز علي كان ينتقد اساليب الشريف حسين ولو انه كان مخلصا لشخصه وقد اخبر عزيز علي ستورز ان تعينه كرئيس للاركان كان كلاما فارغا . انظر ستورز شرقيات ص ١٨٠ . انظر ايضا امين سعيد ، ص ٢١٩ ــ ٢٢٠ . اذ يقول ان عزيز علي قد بملاحظات غير مستحسنة عن البريطانيين دفعت الاخرين الى ان يرجوا الشريف حسين ان ينهي خدماته .

(٣٤) اللحصول على نص الاعلان ، انظر اسعد داغر ، ثورة العرب ، القاهرة ١٩٥٦ ص ١٩٨ ــ ٢٠٣ .

(٣٥) انطونيوس ، ص ٢١٢ •

افكاره تقوم على ان على العرب ان يقتنعوا بوضع ذاتي ضمن الامبراطورية العثمانية وان هذا الموقف كما يبدو ، كان متماشيا مع الافكار الفدرالية التي اعتنقها عزيز علي في اسطنبول ، كما توضحت في منهاج العهد •

ووصلت الحالة الى نقطة حرجة ، حينما هيئت استعدادات حربية خلال شهر تشرين الاول عام ١٩١٦ لمهاجمة المدينة المنورة ، وهي مقر القوات العثمانية في الحجاز • فقد انقسم الضباط العرب في رابغ حول القضية [٣٦] • ذلك ان الذين عارضوا الانفصال عن الامبراطورية العثمانية • اوضحوا بصورة مباشرة الى عزيز علي انهم لايفضلون مهاجمة المدينة • وحيث ان عزيز علي قد لمس ان الشريف حسين كان يستهدف الانفصال التام عن الدولة العثمانية ، فقد تعاطف عزيز علي مع هؤلاء الضباط ، وبحث معهم خطة تتعارض مع سياسة الشريف حسين المستهدفة للانفصال عن الامبراطورية وقد قرر عزيز علي هو وصحبه ، كما اخبرني ، انه حينما اصبحت مهاجمة المدينة شيئا اكيدا ، ان تتصل عصبة من ثلاثة ضباط بالقيادة العثمانية في المدينة المنورة ، وتقترح قيام تفاهم مع حاكمها • وعوضا « عن مهاجمة المدينة المنورة ، فسوف يتم الاقتراح على الحاكم مباشرة السماح لقوة مشتركة من الاتراك والعرب تتقدم نحو مكة تحت قيادته ، فتتولى السيطرة والقيادة العامة من الشريف حسين وتتفاوض من اجل أتفاقية سلمية مع الباب العالي العثماني، على اسس الاستقلال الذاتي العربي ، وضمن اطار الخلافة العثمانية [٣٧] واعتزم

(٣٦) لقد شاعت الاحاديث عن محاولات صلح مع الاتراك ليس فقط بين العرب في رابغ ، بل بين اتباع فيصل وفي كل مكان . انظر ، تي . أي . لورنس ، تقريرعن عمليات فيصل ، النشرة العربية ١٨ تشرين الثاني ١٩١٦ ، المعاد طبعها في المراسلات السرية عن البلاد العربية (لندن ١٩٣٩) ص ١٤ .

(٣٧) يعطي فائز غصين في مذكراته عن الثورة العربية ص ٢٣٩ بيانا مختصرا يشير فيه الى ان الشريف قد سمح في المحادثات السرية بين الضباط العرب في رابغ وبين المدينة المنورة ، والتي ادت الى مغادرة عزيز علي الحجاز .

عزيز علي ، ايضا اجراء محادثات مباشرة مع الالمان ومع السلطات العثمانية في سوريا بهدف الوصول الى ترتيبات مثل هذه ، فيما يتعلق بالاراضي العربية الاخرى • وقد اوضح عزيز علي انه حينما لم يعد من الامكان ابقاء مثل هذه الافكار سرية لفترة ابعد ، وخصوصا ، الخطة المقترحة حول المدينة المنورة ، لان ضباط الجيش الذين كانوا الى جانب التعاون مع البريطانيين قد اوضحوا خطط عزيز علي ، وطبقا لرواية عزيز علي نفسه فأن الشريف علي رجاه ان يوقف خطته في مهاجمة المدينة ، وهكذا فأن جهوده بالاتصال بالسلطات العثمانية قد فشلت •

ولم يعد الحجاز بالنسبة لعزيز علي ، المكان الذي يستطيع من خلاله تنفيذ افكاره وبدأ يهيء نفسه للعودة للقاهرة • واستنادا ، على هذه الخلفية فان محادثاته مع رونالد ستورز ، السكرتير الشرقي للمقيم البريطاني في القاهرة والذي كان في زيارة لرابغ قبل فترة وجيزة من مغادرة عزيز علي ، تصبح اكثر معنى • يذكر ستورز ان عزيز علي قد اخبره (•••••• انه متأكد ان المدينة المنورة اذا ما سقطت فان الاخوان الشريفين سوف يتقدمون نحو سوريا بعد تعاملهم مع الغادر ابن رشيد •) واضاف ستورز ان عزيز علي سأله بصراحة فيما اذا كانت انكلترا ترغب بهذا أم لا ••• واوضح انه على الرغم من رغبته في ان يرى العرب يجتازون الازمه الحجازية ، فانه ليست لديه رغبة أي كانت ،: في ان يشترك معهم في حملة قد تكون بريطانيا ضدها ، ويمكن ان تضعهم بنتيجتها في مضاعفات غير مرغوبة • ولهذا السبب بالذات فأنه كان سينسحب لو نبه في وقته • وقد رجاني ان اخبره أي الوسائل افضل لأتباعها ، على ان يكون ذلك قبل الخامس عشر من شهر تشرين الثاني ، وفي رابغ [٣٨] •

وخلال ذلك ، سمع الشريف حسين بما يجري خلف الكواليس في رابغ ولابد انه كان غير راغب في الاحتفاظ بعزيز علي كقائد لقواته هناك ، وهكذا

(٣٨) ستورز ، شرقيات ، ص ١٨٠ .

فقد اعيد عزيز علي بسفينة حربية بريطانية الى مصر • لقد ترك عزيز علي الحجاز دون ان يحاول رؤية الشريف حسين في مكة ولكنه من الممكن ان يكون قد كتب له بعد وصوله القاهرة موضحا ، اسباب مغادرته (٣٩) •

ان انسحاب عزيز علي من الثورة ، وتركه لحركة كانت السبب في تثبيت سمعته ، قد باتت بداية لسلسلة من التراجعات التي لم يستطع الهروب منها • لقد اظهر عزيز علي اختلافاته الحادة ازاء السياسة البريطانية تجاه العرب ، واعلن عن رأيه بصراحة ، في تفضيله للتعاون مع الالمان وحلفائهم • لقد كان واحدا ، من الضباط العثمانيين الذين اعتقدوا بقابلية المانيا على كسب الحرب واعتقد ان تحلل الامبراطورية البريطانية سيؤدي الى تحرير مصر من الاحتلال البريطاني ، وعودتها الى حظيرة الدولة العثمانية • ويختلف عزيز علي بهذا عن القوميين العرب الذين يمثلون المناطق الواقعة شرق مصر ، الذين رحبوا بالدعم البريطاني للثورة العربية ، املا بالحصول على الاستقلال ، كما كان متماشيا ، في نفس الخط مع موقف بقية القوميين المصريين الذين اعتبروا الثورة العربية كضربة ضد الوحدة العثمانية •

اعتقد عزيز علي ، ان مشاركته في الحرب مع الجانب الالماني ربما تترك تأثيرا ، على الحكومة الالمانية ، يدفعها الى ممارسة الضغط على السلطان من اجل اعادة تنظيم الامبراطورية على اسس غير مركزية وفق ما توضح في منهاج جمعية العهد ، لكي يتم الاحتفاظ بمصر ، والاراضي

(٣٩) وهناك رواية مختلفة لهذه القصة ، وهي تنفي ان يكون عزيز علي قد حاول تحقيق صلح مع الاتراك . انظر اسعد داغر ، مذكراتي ، ص ٨٩ـ٩٠ • ان رواية اسعد داغر تحاول تصوير عزيز علي على اعتبار انه القومي العربي الغيور ، ولكن عزيز علي نفسه قد اخبرني بخطته الهادفة الى تحقيق صلح منفصل مع الاتراك ضد سياسة الملك حسين .

العربية الاخرى ضمن الوحدة العثمانية (٤٠) •

وحاول عزيز علي ، بعد شهور قليلة من عودته للقاهرة ، الذهاب الى سويسرا مؤملا ، الهروب منها الى المانيا • فلم تكن الحياة في القاهرة ، تحت وطأة الاحكام العرفية ، والرقابة مريحة لرجل تعود ان يعرب عن افكاره بصراحة • ان رجاءه الحصول على رخصة يترك بها مصر قد رفض • على ان عزيز علي ترك مصر • فقد سمح له ان يذهب الى اسبانيا وهي قطرا محايدا معزول عن اعداء الحلفاء ، بأراض حليفة ، وهذا سيعني عمليا ، انه سيبقى في حالة نفي الى نهاية الحرب ، وقد كان الامر كذلك على الرغم من محاولاته المتكررة للهرب الى المانيا •

حين وصل عزيز علي مدريد ، قدم خدماته الى المانيا من خلال السفارة الالمانية ولكنه لم يحصل على استجابه لعرضه • واقتنع ان صمت المانيا رغم محاولاته المتكررة ، كانت بسبب من انور باشا الذي كان قد اخبر الالمان ان عزيز علي لايمكن ان يكون مواليا ، مادام قد قاتل في الثورة العربية ضد تركيا •

وقبيل نهاية الحرب العالمية الاولى ، وعلى الرغم من ان تحطم الالمان بات واضحا ، فقد قام عزيز علي بأستعدادات للذهاب الى المانيا مباشرة وطبقا ، لما يقوله هو فأن دافع ذهابه كان رسالة سرية استلمها من المانيا فيها اعتذار لعدم قبول خدماته في وقت سابق • ان تحطم الالمان قد جاء ، على اية حال ، في وقت اسرع مما كان عزيز علي يعتقده • وحين سمع بأستسلام

(٤٠) في مقابلة مع المؤلف ، قدم عزيز علي ادعاء غير واقعي : يتضمن انه قد وافق على الالتحاق بالبريطانيين الذين حاولوا استدراجه الى جانبهم ، وارادوا وضعه على رأس قوة الحملة في العراق او في اليمن ضد الاتراك . وكان البريطانيون ، كما ادعى عزيز علي راغبين في ان يقدموا له عرش العراق او اليمن بعد انتصارهم في الحرب . ولكنه كما ادعى لم يكن مهتما بالعرش ، ولم يكن من المعتقدين ان بريطانيا تستطيع ان تربح الحرب . انظر ايضا ، الاهرام ، القاهرة ٢١ تموز ١٩٥٩ ، ص ٣ .

المانيا ، قال عزيز علي انه يشعر بيأس الى درجة انه حاول الانتحار • ولكنه قد ذهب الى المانيا ، على اية حال ، وبقي هناك حتى اعلن استقلال مصر من قبل البريطانيين في عام ١٩٢٢ ، فأعتقد ان القومية المصرية قد انتصرت في الاخير وتطلع ان يلعب دورا ، في حياة مصر الجديدة بعد الاستقلال (٤١) •

وقبل عودته الى القاهرة ، وصلت الانباء الى فؤاد ، الذي كان قد اعلن توا ، ملكا ، على مصر في عام ١٩٢٢ ، ان عزيز علي كان على اتصال مع عباس حلمي ، الخديو المعزول ، والمطالب بالعرش المصري وسواء ، كانت هذه الاخبار صحيحة او لا ، فأن شكوك فؤاد حول اتصال عزيز علي بالخديو السابق ، قد حطمت فرصه في المساهمة بخدمة بلاده • وبعد اقامة قصيرة في القاهرة ، وجد عزيز علي نفسه خلالها في جوف المنافسة السياسية العنيفة ، فخرج يبحث عن عمل في امكنة اخرى • في عام ١٩٢٣ زار سوريا والعراق وايران • وبما ان سوريا كانت تحت السيطرة الفرنسية الكاملة فقد ركز عزيز علي اماله على العراق ، حيث وجد مضيفا ، يتمثل في رفيق سابق ومساعد له ايام اسطنبول ما قبل الحرب ، والذي اعتمد عليه في المساعدة •

كان من الممكن لعزيز علي ، ان يكون الشخص المناسب ، لاشغال منصب رئيس الاركان العامة ، في الجيش العراقي ، لو انه لم يكن قد غمر نفسه في القضايا السياسية • فهو منذ انسحابه من الثورة العربية في عام ١٩١٦ لم يكتف بعدم الاتفاق مع القوميين العرب الذين كانوا قد تعاونوا مع بريطانيا

(٤١) اشار عزيزعلي ، انه قد عاد الى القاهرة بدعوة من عضوين بارزين من اعضاء هذان العضوان كانا قد سمعا مصطفى كمال (فيما بعد مصطفى اتاتورك) الذي كان يعرف عزيز علي خلال الحرب الليبية ، يمتدح وبشكل كبير الوفد المصري •
عزيز علي • وقد اقترح اسمه بأعتباره الضابط الذي يستطيع اعادة تنظيم الجيش المصري • انظر الاهرام ، القاهرة ٢١ تموز /١٩٥٩ ص ٣

العظمى ، فقط ، ولكنه ايضا ، اصبح الناقد الناطق للسياسة البريطانية ازاء العرب •

واعتبر الملك فيصل الاول ملك العراق ، الذي يدين بعرشه الى التأييد البريطانيين ، أن وجود عزيز علي في بغداد قد يؤثر على الموازنة التي استطاع ان يوجدها بين المعارضة التي يقودها ياسين الهاشمي ، والعناصر المعتدلة ، المتألفة من اشخاص مثل جعفر العسكري ، وعلي جودت الايوبي ، ونوري السعيد (٤٢) • وما كاد عزيز علي يصل بغداد ، حتى وجد نفسه محاطا بزعماء المعارضة ، على الرغم من انذار الحكومة له في ان يبقى بعيدا ، عن التدخل في السياسة •

ولم يثمر الحديث عن احتمال الاشتغال لدى الحكومة العراقية عن أي عرض محدد ، على الرغم من ان العديد من اصدقاء عزيز علي العراقيين اشادوا بقابلياته ونزاهته بصورة كبيرة •

ذهب عزيز علي ليقابل السير هنري دوبس المعتمد البريطاني السامي في بغداد ، فكانت له معه مقابلة عاصفة • فقد سأل دوبس عزيز علي بصورة مباشرة عن سبب مجيئه الى بغداد مادام تركيا وليس عراقيا او عربيا ، وقد رد عزيز علي منكرا ، انه تركي ، لانه شركسي بالاصل ومسلم في الدين ، وبأعتباره مسلما ، فقد قال عزيز علي انه يمثل كل المسلمين في كل مكان ، وانه سوف لن يكون مثل البريطانيين الذين يستغلون الاخرين (٤٣) •

(٤٢) كان جعفر العسكري في تلك الفترة رئيسا الوزارة ، وعلي جودت الايوبي وزيراً للداخلية ونوري السعيد وزيراً للدفاع •

(٤٣) وطبقا لما اورده عزيز علي فأن دوبس قد اقترح ان يهيء لعزيز علي منصب في شركة النفط العراقية ، لكن عزيز علي لم يكن راغبا فيه (مقابلة المؤلف مع عزيز علي) • وللاطلاع على صيغة مختلفة قليلا عن مقابلة عزيز ، مع هنري دوبس ، انظر الاهرام ، القاهرة ٢١ تموز ١٩٥٩ ، ٣ •

ومن بغداد ، ذهب عزيز علي الى طهران حيث قابل رضا خان ، الشاه المقبل لايران والذي قدم اليه خدماته في اعادة تنظيم الجيش الايراني ولكنه لم يجد هناك املا ، في الحصول على مثل هذا العمل • وعاد عزيز علي الى القاهرة خالي الوفاض •

وبما انه قد قوبل ببرود ، وخابت اماله في الحصول على استجابة للعروض التي قدمها للاقطار التي زارها ، والتي كانت في حاجة حقيقية لقدراته العسكرية وحذقه فقد انسحب من الحياة العامة للسنوات الثلاث او الاربع القادمة •

كانت مصادفة سعيدة ، انه قبل فترة وجيزة من زيارته للعراق وايران ، ان قابل في القاهرة فتاة اميركية اسمها فرانسيس دريك ، كانت في زيارة لمصر واقطار الشرق الاوسط • لقد نزلت مس دريك في القاهرة في نفس العمارة التي يقطنها عزيز علي ، ولم يستغرق وقتا طويلا لمصاحبة الفتاة الاميركية الطويلة التي تم زواجه منها اخيرا • فبعد مغادرته لبغداد ، قابل عزيز علي مسس دريك في ايران ، حيث كانت تزور البلاد ، فعادا معا ، الى القاهرة عن طريق بغداد • وفي القاهرة قرر عزيز علي ان يتزوج مسس دريك ، على الرغم من موارده المحدودة وعاش حياة هادئة طيلة الفترة التي فصلت بين الحربين العالميتين •لقد اثمر الزواج ولدا ، واحدا ، اسمه عمر ، وانتهت العلاقة بالانفصال قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية ، وبموافقة عزيز علي نفسه ، فقد صاحبت الام الاميركية ابنها متجهة الى الولايات المتحدة الاميركية ، حيث تخرج الابن من الكلية والتحق بأحد المعاهد التربوية ، مفضلا ، بموافقة والده ، ان يصبح مواطنا ، امريكيا •

وحتى قبل مغادرة عائلته ، لم يكن عزيز علي قد فقد اماله كلية في ان يلعب دورا في الحياة العامة ، فقد اتصل بسعد زغلول باشا زعيم حزب الوفد ، بناء على اقتراح احد اصدقاء زغلول عام ١٩٢٧ • ويبدو ان عزيز علي قد

احدث تأثيرا ، قويا ، على سعد زغلول الذي ربما كان قد وعد عزيز علي بمنصب مهم في حزب الوفد المصري [٤٤] • غير ان موت سعد زغلول الفجائي الذي ترك قيادة الحزب في ايد لم تكن راغبة في ان تأخذ عزيز علي الى دوائرها ، دفع به الى ان ينشد المساعدة من السياسيين الاخرين من اصدقاء القصر الملكي • اعطي عزيز علي فرصة كان من الممكن ان ترفعه الى اعلى مقام في دوائر القصر ، لو كان يمتلك الاخلاق والصفات التي تتصف بها حاشية القصر • فيما انه كان مؤمنا ، بان النظام العسكري هو فضيلة لا يمكن ان تتقدم عليها المناورات السياسية ، فأنه قد وقع في صراع مع فاروق ، ملك مصر المقبل ، فبعد فترة من الخدمة في مدرسة لتدريس الشرطة ، اختير عزيز علي كمرافق لفاروق الذي كان ولي عهد العرش المصري ، والذي كان قد ارسل الى انجلترا للدراسة في عام ١٩٣٥ • ويبدو ان عزيز علي قد فرض على فاروق ، الذي كان مدللا ، نظاما عسكريا شديدا لم يحببه الى ولي العهد ، كما ادى الى عودة عزيز علي الفجائية بعد فترة وجيزة من تعيينه ، وتم استبداله بمرافق اخر •

لقد بات واضحا ، ان عزيز علي ، وهو الناقد الناطق ، لاي شيء يعتقده خطأ ، لن يصلح في دوائر القصر •

اعطت الحرب العالمية الثانية ، عزيز علي اخيرا ، الفرصة لان يحتل المركز الذي طالما اشتاق اليه ، كرئيس للاركان العامة ، وان يزاول قيادة الجيش المصري •

في عام ١٩٣٩ ، اصبح علي ماهر ، رجل مصر القوي ، بعد وفاة الملك فؤاد رئيسا للوزراء وقد ادخل علي ماهر ، في وزارته وبموافقة ضمنية من

(٤٤) ادعى عزيز علي لكاتب السطور ، ان سعداً كان يريد تعيينه كنائب له في حزب الوفد

الملك فاروق ، عناصر معارضة للمصالح البريطانية [٤٥] كما دخل ، كما نعرف ، في تعامل سري مع قوات المحور •

وكان عزيز علي ، المعروف بميوله المتعاطفة مع الالمان ، قد عين رئيسا للاركان العامة ولم يخف مشاعره المعادية للبريطانيين [٤٦] •

لقد كان من الممكن لعزيز علي ان يحصل على الفرصة لحمل الجيش المصري على مساعدة المحور في السيطرة على الوطن العربي ، لو ان قواهم نجحت في اجبار البريطانيين على ترك مصر خلال الايام الاولى من الحرب غير ان السلطات البريطانية في مصر ، وقد ادركت خطورة الوضع الداخلي ، عملت بسرعة على تحشيد العناصر الموالية للبريطانيين ، من اجل اجبار علي ماهر باشا على الاستقالة في حزيران ١٩٤٠ • وقد اقال حسن صبري ، رئيس الحكومة المؤلفة من اعضاء اصدقاء للبريطانيين ، عزيز علي من منصبه ، وحدد من تحركات العناصر الموالية للمحور •

فقد عزيز علي الاستقرار في هذه الظروف الى حد كبير ، واخذ يشجع الفعاليات المعارضة للحكومة •

وكانت فعاليات الضباط الاحرار خلال الحرب ، والتي بلغت قمتها في ثورة ١٩٥٣ ، معروفة الى عزيز علي الذي شجع الروح الثورية للضباط واصبح « اباهم الروحي » •

لقد وضعت الخطط للضباط الاحرار لان يقوموا بثورة ضد البريطانيين في مصر ، مشابهة للانتفاضة العراقية لعام ١٩٤١ • كما وافق عزيز علي ان

(٤٥) من البارزين بين هؤلاء ، كان صالح حرب باشا وزير الحرب ، وعبد الرحمن باشا . (انظر مذكرات هيكل باشا جـ ٢ ص ١٨٠ – ١٨١ .

(٤٦) الفيلد مارشال اللورد ولسن ، ثمانية اعوام فيما وراء البحار ١٩٣٩ – ١٩٤٧ (لندن ١٩٤٨) ص ٢٤ – ٥٤ . انظر ايضا هيكل ، المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

يتصل بالالمان في ليبيا وان يزحف معهم نحو مصر • على انه لم يكن من المعقول ان يكون الالمان قادرين على ارسال طيارة تحط في مصر ، وتلتقط عزيز علي ، كما كان قد اشير الى ذلك كثيرا في المصادر المصرية ، لكنه من المؤكد ان الضباط الاحرار كانوا قادرين على تجهيز طائرة ستمكن عزيز علي من الهرب الى الخطوط الالمانية ، غير انه يبدو يقينا ان الحظ كان ضد الجنرال عزيز علي ، فلقد اصطدمت الطائرة بعمود عند اقلاعها وتحطمت ، واستطاع ركاب الطائرة الخلاص بأرواحهم بأعجوبة • وتم توقيفهم وسجنهم بتهمة التآمر ضد سلامة الدولة [٤٧] •

استمر عزيز علي في اعطاء النصيحة للضباط الاحرار ، وقبل فترة وجيزة من قيامهم بأنتفاضتهم وحينما احتاجت فعالياتهم الى رئيس يعطيهم التعليمات فقد دعي عزيز علي ليملاء الدور • ولكنه وكما اوضح ذلك احد الضباط الاحرار ، فأنه اعتذر بدعوى تقدمه في السن واعتلال صحته ، مفضلا ان يبقى الاب الروحي لحركتهم ومن المحتمل ان عزيز علي ما كان لينكمش عن قيادة حركة كانت ستمكنه من ان يلعب الدور الذي مال اليه اكثر من اي شيء اخر في حياته ، ولكنه يبدو ان الضباط الاحرار لم يكونوا متحمسين كثيرا للاستفادة من خدماته ، لانهم فضلوا الاستفادة من خدمات رجل سيكون مجرد رمز لحركتهم • وليس من حاجة الى القول ان عزيز علي لم يكن ليستطيع ان يقوم بدور الرمز فقط • وكانوا هم غير راغبين في وضع كل شيء في ايديه ، وعلى كل حال ، فان الضباط الاحرار استمروا ينشدون نصيحة عزيز علي ، وقدموا كثيرا من دلائل العرفان للتأييد الذي تلقته حركتهم منه •

(٤٧) المصدر السابق ، ص ٣٨ . لقد حاول عزيز علي الهروب من مصر في الخامس عشر من شهر مايس ١٩٤١ ، ولكن اصطدام طائرته قد ادى الى توقيفه وسجنه . ثم اطلق سراحه في الثاني من شهر تشرين الثاني ١٩٤٤ . انظر هيكل ، المصدر السابق ، ص ٢١٤ – ٢١٥ .

لقد شاهد عزيز علي ، بعد بلوغه اخر العمر ، على الاقل ، الثـورة التي حلم بها دائما تتحقق بأياد اخرى[٤٨] .

امتلك عزيز علي ، منذ حداثة سنه الشجاعة والاستقامة والقوة العضلية والذكاء الحاد ، ممزوجة بالرغبة المتلهفة للتعلم ، وهي صفات تؤهل أي شاب متطلع لان يشق طريقه الى الاعلى في المجتمع .لقد نشأ في مصر ، في اواخر عهد كرومر ، حينما وصلت المشاعر المعادية للبريطانيين اعلى درجاتها . كانت طفولة عزيز علي مصاغة في جو ممزوج بالعداء لسيطرة اوربا السياسية . واثار القوميون المصريون ، في معاداتهم للاحتلال البريطاني ، الرغبة بأدراك اهمية الارتباط بالخلافة العثمانية . لقد كانت القومية المصرية ، ممتزجة بالحماس الاسلامي التقليـدي . واستلم عزيز علي في هذا الجـو المفعم بالعاطفيـة ، تعليمه الاولي وحددت العوامل العاطفية قراره . فبعد التخرج من الثانوية تابع دراسته في اسطنبول بدلا من باريس او لندن . ولو لم يكن مشبعا بهـذه الميول المعادية للنفوذ الاوربي ، لكان قد حصل على تعليم افضل في اوربـا ومادام تابع الدراسـة في اسطنبول ، فانه كان يتعذر على التعليم العثماني ان يحسن كثيرا من تحصيله الـذي كان قد تلقاه في القاهرة ، عدا تزويده ــ من المحتمل ــ بتدريب عسكري مهني ، وحتى في حقل اختصاصه فان عزيز علي تقبل ، بدون انتقاد ، الاعجاب العثماني بالنظام العسكري الالماني واساليب الحرب الالمانيـة .

كان لاسطنبول ، في اواخر العهد الحميدي تأثيرا اخر في مستقبل عزيز علي . فحينما كان لا يزال طالبا في الكلية العسكرية ، ارتبط بجماعة من ضباط الجيش الذين شعروا ، بحق انه لواجب وطني المشاركة بدور فعال في السياسة من اجل انهاء الاستبداد الحميدي ، واعادة الحياة الدستورية .

---

(٤٨) خدم عزيز علي لشهور قليلة كسفير لمصر في الاتحاد السوفياتي عام ١٩٥٤ .

لقد نجحت الفعاليات السياسية لضباط الجيش في الاطاحة بالنظـام الحميدي ، وادت في النهاية الى تحويل السلطة من ايدي المدنيين الى ايدي العسكريين ، والى صعود نجم بعض اصدقاء عزيز علي ومشاركيه الى المناصب السياسية العليا ، بينما اضطر الاخرون امثال عزيز علي ، الذين لايستطيعون اخضاع تنظيمهم العسكري الدقيق الى القوى السياسية ، الى البقاء في مناصب اقل اهمية . ولم يكن من غير الطبيعي ان تكون الوضعية على هذه الحالة . ذلك ان السياسة تتطلب مواصفات لايستطيع العسكريون بأعتبارهم جنـودا نظاميين ان يتسامحوا اذا ما ارادوا الابقاء على اسلوبهم العسكري .

ان عزيز علي ، بأعتباره ضابطا عسكريا جيدا لم يستطع ان يتسامح مع المستويات المقبولة لدى السياسيين . لقد توقع ان يحقق ، نجاحا سياسيـا ، معتمـــدا علـى حقيقـــة كـونـــه قـــد نجـــح فـي مسلكه العسكري . لقد نظر بحسد الى انور باشا الذي قد لا يكون قد حقق مستوى عاليا ، مساويا ، مستواه في المسلك العسكري ولكنـه توصل الى مكانة سياسية عالية لانه اثبت انه قادر على التلاعب بالقوى السياسية لصالحه وهو امر لم يكن عزيزعلي بقادر على القيام به . ان افتقار عزيز علي الى الفطنة السياسية قد استغل بصورة كاملة من الجماعات المعارضة ، وخصوصا ، القادة العرب ، لمنفعتهم . وهكذا فأن اصطدامه مع القادة الاتراك ، والذي بـدأ بصراع مع انور ، قد استغل كذريعة في شجب سياسة الحكومة ازاء العناصر غير التركية في الامبراطورية العثمانية ، ووضع عزيز علي في موضع زائف ، بأعتباره زعيما ، للقوميات الناهضة ، ضد الوحدة العثمانية .

وهكذا فعلى الرغم من كون عزيز علي في قرارة نفسه ، من المؤمنـين بصدق بالوحدة العثمانية ، فانه قد وجد نفسه على غير ارادة منه مشتركا ، في الفعاليات المناهضة للحكومة ، والمستهدفة لانهاء الوحدة العثمانية . وقد اثار

هذا الامر شكوك اصحابه في المناصب الحكومية العليا ، ولكنه لم يكن بقادر على ان يخلص نفسه من هذه الوضعية .

ان الامتحان الصعب الذي اثبت تمتع عزيز علي بالكرامة والايمان العميق بافكاره ، وكانت الفرصة التي اعطيت له في الاشتراك في الثورة العربية عام ١٩١٦ ، فلو انه كان سياسيا « انتهازيا » مستهدفا الحصول على القوة والمكانة لكان في استطاعته الحصول على مناصب اعلى من تلك التي اعطيت لجعفر العسكري ونوري السعيد ، اللذين كانا في تلك الفترة اقل منه مرتبة واللذين ارتفعا اخيرا الى مراتب الوزراء . لقد ذهب عزيز علي الى الحجاز ، كما ذكر ، ولم يكن هدفه ان يحطم الوحدة العثمانية ، على الرغم من انه امن بأخلاص ان العرب يجب ان ينالوا الحكم الذاتي ضمن الكيان العثماني . وحين اكتشف — لدهشته — ان الشريف حسين قد استهدف الانفصال التام عن الوحدة العثمانية وهو امر لم يكن واضحا في التصريحات الرسمية ، فقد نشد عزيز علي ، التعاون الالماني ، املا الحفاظ على الوحدة العثمانية ، ومعتقدا في نفس الوقت ، ان تفاهما بين الترك والعرب سيتمخض عن الانتصار الالماني على بريطانيا . وهكذا فقد ظهر عزيز علي ، كرجل مثالي رفض السلطة في صالح حكم كان تطبيقه موضح تساؤل ، وهو التفكير الذي سيطر عليه منذ ايام اسطنبول ، بدلا من ان يكون رجل الدولة العملي الذي يستطيب لعبة القوى السياسية .

لقد كانت هناك ، في الحقيقة عوامل عاطفية معينة ، يمكن ان تكون قد لعبت دورا في اتخاذ قراره الخطير بنشدان التعاون الالماني بدلا من التعاون مع البريطانيين ، منها اعجابه بالنظام العسكري الالماني ، وكرهه لبريطانيا لاحتلالها لمصر . ويبدو ان القرار الذي اتخذه بهذا الشأن ما كان من الممكن التراجع عنه . لقد اثير نقاش يتعلق في ان انفصال عزيز علي عن الشريف حسين انه كان — جزئيا على الاقل — يعود لاسباب شخصية اكثر منها سياسية ، تعود الى عدم

خضوع عزيز علي الى رؤسائه ، ولو كان لهذا العامل الشخصي أي تأثير مهم على قرار عزيز علي ، فأن ذلك يجب ان يعكس قوة اخلاقيته وشخصيته .

لم يظهر عزيز علي اية مرونة ، او أي استعداد لان يغير فكره حينما تثبت الحوادث خطل وجهات نظره . لقد ابدى عزيز علي بأستمرار اعجابه بالنظام العسكري الالماني خلال الحربين العالميتين ، الاولى والثانية ، بدون ان تكون لديه اية فكرة عن شكل النظام العالمي الذي سيبرز نتيجة للانتصار الالماني . اعتقد عزيز علي ، انه اذا ما انتصرت المانيا ، فأنه سيكون قادرا على تحقيق احلامه دون اعتبار لمطابقتها للواقع . لقد تملكه التغيير الاجتماعي عن طريق الحرب او الثورة وهذا تملك عقله ، لانه اعتقد انه لايمكن تحقيق التقدم الا عن طريق اسقاط الانظمة التقليدية .

هذه الافكار ، على الرغم من كونها مثالية في اساسها ، اعطت الانطباع بأنه رفيق سفر ، او مغامر في طلب السلطة . وقد ثبط هذا الانطباع ، ان لم يكن قد اخاف ، مواطنين عديدين كان من الممكن ان ينشدوا تعاونه في الحياة العامة[٤٩] . غير ان عزيز علي كان في قرارة نفسه مثاليا رغب من خلال عواطفه الجياشة ، ان يعيد صياغة المجتمع عن طريق الوسائل العنيفة كالثورة ، واقامة الحرية ، والمساواة على المبادىء الانسانية .

وعلى كل حال ، فقد كرس عزيز علي ، وقتا اكبر الى مشكلة كيفية تحقيق افكاره المثالية مما انفقه على طبيعة وشكل هذه الافكار المثالية التي اراد ان يحققها .

(٤٩) انني استند على رواية السنهوري انه حين اقترح على النقراشي ، زعيم حزب السعديين ان ينشد تعاون عزيز علي ، في اقامة جمعية قومية ، فان النقراشي قد ثبط عزمه بأشارته ، كن حذرا ، ان هذا الرجل هو مغامر .

ان الاساليب والوسائل التي كان عزيز علي يستطيــع عن طريقها تحقيق هدفه ، بدت بالنسبة له اكثر اهمية من الهدف نفسه • ذلك ان عزيز علي لــم يكن بالضرورة مفكرا اجتماعيا ، ولكنه كان مخططا انجذب لبعض الافكـــار الخيالية التي اراد ان يحققها بوسائل ثورية • ونادرا ما يستطيع رجل له مثل هذا السجل المغامر الوصول الى مرتبة محترمة في الثمانين من عمره : ففي اكثر من مناسبة تخلص عزيز علي من نهاية مميتة بأعجوبة ، وفي مرات عديدة عانى السجن لفترات قصيرة او طويلة ، بضمنها النفي • ان افكاره الخيالية التي اراد تحقيقها من خلال الثورة بقيت سرابا ، لانه لم يكن لاي من مشاريعه التـــي وضعها ، اقل فرصة للنجاح • ان الثورة المصرية لعام ١٩٥٢ ، والتي استقى قادتها ايحاؤها من افكاره الثورية ، يمكن ان تعتبر تحقيقا لافكاره المثاليــة التي ظلت عزيزة عليه لفترة طويلة •

الفصل الثاني

نجيب عازوري

بين يقظة الامة العربية والخطر الصهيوني

افرزت حركة اليقظة القومية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والربع الاول من القرن العشرين شخصيات لعبت دورا بالغ الاهمية في صياغة الفكر العربي وفي رسم مسيرته •

واتخذت الغالبية العظمى من هؤلاء المفكرين خطا يقوم على المواشجة بين التعاليم الدينية الاسلامية ، وبين متطلبات العصر المتجدد • ويعود ذلك الى طبيعة التعليم الذي تلقته هذه المجموعة ، والى المحيط الذي عاشته ، فدعوة رفاعة رافع الطهطاوي وجمال الدين الافغاني ومحمد عبدة ورشيد رضا ، تلتقي جميعا في انها بنيت على مقولة فحواها ان الدين الاسلامي صالح للتطبيق في العصر الحديث وانه يواكب التطور العلمي ويدعمه وان سبب التخلف الذي ساد المجتمعات الاسلامية، انما كان بسبب سوء التطبيق والجمود، وان الاخذ بالتقدم العلمي الذي تقدم فيه الغرب ، وتطبيقه في مجتمع اسلامي ، سوف يوفر مزيجا من تقدم حضاري (تكنولوجي) وروحية اسلامية، مما يؤدي الى قيام مجتمع حديث يوازي الغرب في تقدمه المادي ويفوقه في تقدمه الروحي •

غير ان مدرسة اخرى ، من المفكرين العرب اتجهت نحو الغرب وراحت تنقل عنه مبادىء التطور لدارون ومبادىء الاشتراكية ، والمساواة الاجتماعية والديمقراطية ، ومن هؤلاء ، شبلي شميل ، فرح انطوان واديب اسحق • ولعل اول رواد الجيل الذي تحدث بوضوح عن مستقبل العرب الحديث وطريقهم ، هو نجيب عازوري •

ونجيب عازوري ، ولد في ٢٥-١٢-١٨٨١ في بيروت ، وعمل في الدولة العثمانية في متصرفية القدس كنائب لحاكمها[١] من خلال احتكاكه بالفكر السياسي الفرنسي ايام دراسته في باريس ، وبسبب من معايشته لمشاكل الدولة العثمانية ، قدم لنا دعوته الى وجوب انهاض القومية العربية ، في كتابه « يقظة الامة العربية » والذي صدر لاول مرة باللغة الفرنسية عام (١٩٠٥) والذي ترجمه اخيرا د. ابو ملحم (بيروت عام ١٩٧٨) وقدمت له الدكتورة زاهية قدوره .

كان عازوري اول من دعا الى تأسيس حزب قومي عربي اطلق عليه اسم (رابطة الوطن العربي) عام ١٩٠٤ ، كما اصدر في باريس مجلة اطلق عليها اسم مجلة (الاستقلال العربي) مابين ١٩٠٧ -١٩٠٨ وآمن عازوري بأصالة الحضارة العربية وابعادها الحضارية وبأنها الاطار الذي يجمع المسلمين والمسيحيين ، ولهذا دعا الى خلق مذهب قومي عربي والى استعمال اللغة العربية في كل مجال فهو يقول « وأي خير يتأتى من ان تصبح اللغة العربية لغة القران والاسلام العالمي ــ لغة المذهب الكاثوليكي[٢] ، وعن النتاج الانساني العربي يقول عازوري (لقد ساهم العرب مساهمة فعالة في نتاج الانسانية المشترك واختصروا لاوربا ليل العصور الوسطى الطويل[٣] ، وفي المجال السياسي ، دعا عازوري الى اقامة امبراطورية عربية تمتد من الفرات ودجلة الى خليج السويس ، ومن المتوسط حتى بحر عمان ، على ان تسود هذه

(١) حول حياة نجيب عازوري انظر د . اسعد رزوق ، نجيب عازوري الوحدوي المجهول ، المستقبل العربي ١١/٩٧٨ ص ٨٩ و ٩٠ .

(٢) يقظة الامة العربية ص ٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ٦ .

الامبراطورية حرية المذاهب ، وتتوفر فيها المساواة ، ودعا عازوري الى فصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية واقامة الدولة العربية في القسم الاسيوي . اعتقد عازوري وكان على حق بأن الاتراك قد اساؤا الى العرب اكثر من اسائتهم لبقية القوميات والطوائف الاخرى، ولهذا فكان يكره الاتراك والدولة العثمانية خلافا لبقية المفكرين العرب ، ويتطلع الى اليوم الذي يستطيع فيه العرب الخلاص من حكمها وكان العازوري يعتقد ان العلاقة بين العرب والترك قد تخلخلت وانه لابد من تنظيم هذه العلاقة بما يضمن للعرب مصالحهم القومية سواء كان ذلك بأقامة نظام لا مركزي او بأنتزاع العرب لاستقلالهم التام ، فهو كان يرى ان فجر القومية العربية سيحل قريبا ، وهذا يساعد على تحرر العرب من السيطرة العثمانية .

كان نجيب عازوري من اوائل المفكرين العرب الذين نبهوا الاذهان الى مخاطر الحركة الصهيونية والاهداف التي تنشرها ، بل ان عازوري قد وصل من النضج في ادراكه لمستقبل الصراع بين القومية العربية النامية والحركة الصهيونية الى درجة «التنبؤ» فقد قال «ان ظاهرتين هامتين متشابهتي الطبيعة بيد انهما متعارضتان ، لم تجذبا انتباه احد حتى الان تتضحان في هذه الاونة في تركيا الاسيوية ، اعني يقظة الامة العربية وجهد اليهود الخفي لاعادة تكوين مملكة اسرائيل القديمة على نطاق واسع ومصير هاتان الحركتان هو ان تتعارك بأستمرار حتى تنتصر احداهما على الاخرى بالنتيجة النهائية لهذا الصراع بين هذين الشعبين اللذين يمثلان مبدأين متضاربين بهما مصير العالم بأجمعه »[٤] ، ان هذه الرؤيا الثاقبة للمصير العربي في عبارة نجيب عازوري هذه ثبت مصداقيتها طيلة العقود الثلاثة المنصرمة وانها اضحت ملازمة لازمة الوجود العربي الراهنة حيال الخطر البارز المحدق بها ، الخطر الصهيوني المتربص بالامة والمصير العربي .

(٤) يقظة الامة العربية ، ص ٤٩ .

بلا شك ان افكار عازوري حول الحركة الصهيونية قد نضجت خلال توليه منصب نائب حاكم القدس ، حيث عايش عن كثب مشكلات الظلم العثماني وفساد الادارة العثمانية والولاة الاتراك الذين تعاقبوا على حكم متصرفية القدس منذ ان جعلها السلطان عبدالحميد سنجقا مستقلا (عام ١٨٨٧) يتبع الباب العالي مباشرة ، والمعروف ان متصرفية القدس المستقلة كانت تضم الاقضية التالية : القدس ، يافا ، غزة ، الخليل وبئر سبع .

تؤلف هذه الفترة نقطة التحول الحاسم والمصيري في حياة عازوري ومسار تفكيره ، اذ اتيح له خلالها ان يطلع بحكم منصبه على النشاط الصهيوني والفوضى الادارية المستشرية ويدرس الاخطار الناجمة عن المخطط الاستعماري الرامي الى استيطان اليهود بفلسطين ، فهو يخرج منها تاركا منصبه بملء حريته لكي يكرس نفسه للعمل السياسي من اجل تحرير الوطن العربي ، ويشرح عازوري ما عقد عليه عندما عكف على تأليف كتابه (يقظة الامة العربية) .

ويلاحظ ان عازوري كان يصب جام غضبه على تصرفات كاظم بك (١٩٠٠ – ١٩٠٤) والي القدس وتجاوزاته المنكرة،فهو يتحدث عن فساده وسعيه وراء الرشوة ويسرد الحوادث والقصص التي تفضح تهاونه وتكشف تواطئه مع اليهود وتغاضيه عن هجرتهم الى فلسطين ، وفي كانون الثاني عام ١٩٠٤ استطاع نجيب عازوري اقناع المفتش العام الذي اوفده الباب العالي الى فلسطين برفع تقرير الى السلطان عن حقيقة الاستعمار الصهيوني في فلسطين[٥] ، ويرد عازوري على منطق الصهاينة في مطالبتهم اقامة دولة عنصرية فوق تراب فلسطين اعتمادا على تفسير حرفي ومادي للتوراة فيقول « ان التفسير الظاهري والحرفي الذي يقتصر عليه اليهود . يجعل هذا الكتاب خطيرا ولا اخلاقيا ويشكل ادانة رهيبة بينما المعنى المجازي والروحاني الذي يضيفه اللاهوتيون المسيحيون

(٥) د . اسعد رزوق ، المصدر السابق ، ص ٩١ .

على قصص التوراة اخلاقي تماما ويرفع كثيرا من قيمة العهد القديم[٦] .

ويفرد نجيب عازوري فصلا كاملا في كتابه للحديث عن (وصف فلسطين) فهو يتحدث عن انهارها وينابيعها المعدنية وثرواتها الطبيعية وصناعتها ومناخها ومنتوجاتها ثم ينتقل الى رسم صورة للوضع الراهن في ظل الادارة التركية والحكم المستبد فيقول لا شيء اكثر صحة من قول (مونتسكيو) عندما يريد متوحشو لوزيانا قطف الاثمار فانهم يقطعون الشجرة من جذعها ويقطفون ثمارها وهكذا تفعل الحكومة المستبدة ، اذا اراد احد ان يدرس تأثيرات عمياء بربرية على بلاد غنية انصحه بالتجول في فلسطين وسوريا والعراق[٧] .

حقا لقد تعرف الى جغرافية فلسطين والى مشاهدها الطبيعية الجذابة ، فهو يؤكد على اوجه الشبه في كل من الجغرافيا الاقتصادية والحالة السياسية بين فلسطين وسوريا وبلاد ما بين النهرين ، ويطلب الى القارىء « لمن يضفي على بقية البلدان العربية التأملات التي اضفيناها على وادي الاردن بغية فهم ما سوف يأتي وهو يدور حول اهمية حركة القومية العربية وموقعها بالنسبة للدولة الاجنبية الكبرى وللقوميات الاخرى في تركيا[٨] .

ومن الجدير بالملاحظة ان عازوري الذي خرج من تجربته الفلسطينية بتكريس نشاطه لخدمة اغراض التحرر والاستقلال ، ولا يترك اهتمامه بفلسطين وقفاً على جعلها صورة مصغرة للمصير العربي في واقعه وتطلعاته ولا يكتفي بالاشارة الى مقدساتها وذكرياتها التأريخية ، بل يجد متسعا للاشادة بجمال الطبيعة في فلسطين ويرسم صورة مشرقه للمستقبل الفلسطيني في ظل الدولة العربية المستقلة ، ويبدو تعلقه بفلسطين من خلال حبه لطبيعتها وترابها ومناظرها الرائعة فأسمعه يقول « لقد شعرت بفتنة البسفور وجماله الساحر ولكني لم

(٦) يقظة الامة العربية ص ١٤١ .
(٧) المصدر نفسه ص ٥٦ .
(٨) ص ٧٦ – ٧٧ .

اشعر في القسطنطينية بالاحساس الذي غمرني به خلال رقاد الشمس مساء يوم من شهر كانون الاول سنة ١٨٩٩ في عين جدى على البحر الميت ، قضيت عدة فصول شتوية في القاهرة ولكنها لاتساوي الاسبوعين اللذين قضيتهما على بحيرة طبريا في شهر شباط من سنة ١٩٠٤ وانصح الذين يحبون التأملات السوداوية الفاتنة بالذهاب لتمضية عشرة ايام من شهر اذار عندما تكون اشجار الليمون مزهرة[٩] .

ان افكار نجيب عازوري تمثل البداية الحقيقية لافكار القومية العربية وان قراءة كتابة (يقظة الامة العربية) والتعرف على فحواه هو وفاء لرجل كان احد الرواد الذين نبهوا الامة العربية الى المخاطر التي يشكلها الخطر الصهيوني على الوطن العربي ، واول صيحة واضحة المعالم نادت بأن وحدة العرب هي الطريق الوحيد لكي يستطيع العرب من خلالها المساهمة في رفد الحضارة الانسانية بالعطاء [١٠] .

---

(٩) يقظة الامة العربية ص ٧٢ و ٧٣ .

(١٠) من المفرح ان عدداً من الباحثين يولون اهتماما في الكشف عن شخصية نجيب عازوري ودوره في الحياة السياسية والفكرية السائدة وقتئذ ، ولا شك هذا يساهم في القاء مزيد من الاضواء على دوره الرائد وخصوصا انه اول من نبه العرب الى الخطر الصهيوني ، وهو امر لم يلتفت اليه كثير من الباحثين ، ومن البحوث التي كتبت حول نجيب عازوري منها :

١ ـ قراءة في اراء نجيب عازوري ، مجلة الدراسات الفلسطينية عدد ١٩٨٠/٣٦ مكي حبيب المؤمن ، استاذ مساعد ، مركز دراسات الفلسطينية ، جامعة بغداد .

٢ ـ د . احمد ابو ملحم ، نجيب عازوري رائد قومي حقا ، دراسات عربية عدد ١٩٧٩/٢ .

٣ ـ د. اسعد رزوق ، نجيب عازوري الوحدوي المجهول ، المستقبل العربي عدد ١٩٨٠/١١ .

٤ ـ حازم صياغية ، نجيب عازوري هل حقا رائد قومي !؟ مجلة دراسات عربية عدد ١٩٧٩/١١ .

الفصل الثالث

فرح انطون

وانضال الفئة المثقفة العربية في الدولة العثمانية

كتب الاديب اللبناني ، مارون عبود[1] في ٢٩ تشرين الثاني عام ١٩٣٤ بقوله « وهذا فرح انطون ماذا لقى في هذا الوطن ؟ واخجلة التاريخ منك يا أبا المدرسة الحرة ، فمن نشر آراء رينان ، روسو ، وتولستوي وروسكين ونيتشه وغيرهم قبل فرح ، ماذا فعلنا نحن له غـير الأغاره على آثاره التي اتخذ سويداء قلبه مدادا لتجبيرها ؟ فهذا المنفلوطي ـ غفر الله له ـ صديق فرح قد قرظ قصة بولص وفرجيني التي ترجمها فرح ، وعملها قصيدة يوم كان ينظم الشعر ، حتى اذا ما مات فرح شن الغارة على بيت صاحبه فسبى بناته وكساها ثوبا عربيا من طرازه ، فأفسد خطوطها ورسومها فصارت عربية ملحفه ولا فرنجية مشمرة » •

فمن هو فرح انطون ؟ وما هي أفكاره ؟ وما آثارها ؟

ولد فرح انطون عام ١٨٧٤ في طرابلس[2] وهاجر الى القاهرة في عام ١٨٩٧ ، ليس فرارا من الاضطهاد والمهانة فقط ، بل لاسباب اقتصادية أيضا • ولكون فرح انطون تلقى علومه وثقافته الحديثة في المدارس الارسالية في

---

(١) في جريدة صوت الاحرار اللبنانيـة ، نقلا عن ، مارون عبـود ، جـدد وقدماء ، دراسات ونقد ، ومناقشات ، بيروت ١٩٦٦ ص ٢٩ .

(٢) اوضح، حوراني ، البرت ، الفكر العربي، ص٣٠٣، انه ولدفي١٨٧٤ والدكتور عبدالكريم رافق ، العرب والعثمانيون ، ١٥١٦ ـ ١٩١٦ ، ولـد عام ١٨٧٤ ص ٥٢٠ اما هاشـم شرابي ، المثقفون والعرب والغرب ، ص ١٤٦ ولد ١٨٧١ وكذلك الاعلام ، الزركلي ، ولد في ١٨٧١ ، ص ٣٤١ .

كفتين[٣] وحصوله على نظام تعليمي ، كان ، في شكله العام ، عقلانيا ، مما مهد له الطريق في حياته لنوع جديد من الادراك والتفكير الحر • وقد ساعده في ذلك اجادة أكثر من لغة أجنبية ، وتمرسه الكامل بالادب واللغة العربية والمامه بالمعرفة العلمية الحديثة • ان اجادة انطون أكثر من لغة أجنبية (الانكليزية والفرنسية) قد أمدته باداة فكرية مهمة لم يمتلكها مواطنوه وقتئذ ، أثرت جذريا في توجهه السياسي والفكري والفلسفي وفتحت أمامه آفاقا رحبة وجعلته في تماس مباشر مع الادب والفكر والمعرفة الاوربية • وان وجوده في نيويورك خلال الفترة (١٩٠٥-١٩٠٨) وعمله في الصحافة هناك ، جعلته مطلعا اطلاعا مباشرا على الحضارة الاوربية وتراثها الفكري والعلمي ، مما أدى الى تشكيل الخيال الادبي الصاعد ، لفرح انطون ، وساهمت في تنمية الذوق والابداع والوعي الاجتماعي لانطون ، وكان قبله لم يعالج أحد المشاكل الاجتماعية العريضة ، ولهذا كان وعيه الاجتماعي قائما على ، العلمانية ، والنظرة العقلية في تحليل أمراض المجتمع ووصف حاجاته ضمن اطار اشتراكي[٤] •

ولقد وجد ، فرح انطون ، في مصر ، بعد هجرته اليها ، أمامه مدى واسعا للمشاركة الفكرية الواسعة لمشاكلها الكثيرة • وقد تمتع انطون بظل الحرية النسبية التي سمح بها المحتل البريطاني ، نكاية بالدولة العثمانية • وبذلك جاءت

(٣) انظر السيد ، محمد رشيد رضا ، تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده القاهرة ، ١٩٣١ ، ص ٨٠٥ ، والدكتور رفعت السعيد ، ثلاثة لبنانين في القاهرة ، بيروت ١٩٧٣ ص ٧٧ • ويعتبر انطون اول من قدم دراسة عن افكار ، ماركس وتولستوي ، انظر : هاشم شرابي ، المصدر نفسه ص ٨٠ •

(٤) انظر : الياس فرح ، تطور الحركة الاشتراكية في الوطن العربي ، جريدة الصحافة ٨ نيسان عام ١٩٥٩ ص ٥ ، مقتبس من كتاب(جذور الاشتراكية) كامل ابو جابر ، بيروت ، ١٩١٣ •

افكاره الحرة ، في السياسة والفلسفة والفكر ، في فترة حالكة من تاريخنا الحديث ، حيث دخلت الدولة العثمانية في أزمنة خطيرة تردد صداها في كافة ميادين الحياة الاجتماعية • فقد تدهور الاقتصاد ، ودب الفساد في ماكنة الدولة ، وخرجت الاقاليم عن طاعة الحكومة وسلطاتها المركزية ، وانحطت الثقافة والادب • اما بالنسبة للنظام الاقطاعي فقد وصل مداه • وان وصف الدولة العثمانية في هذه الفترة بجثة حصان قد تعفنت ودب اليها الفساد ، فانتشر مافيه الكفاية من غاز المستنقعات وغيره من المواد « العطرية » الغازية[٥] شيء صحيح ومعبر عن الواقع الاجتماعي السائد وقتذاك •

ان افكار ، فرح انطون ، العقلية ومحاربته للغيبية والقديم البالي وتأكيده على العلم والفلسفة الحديثة ، لايمكن فصلها عن التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي تمت في سبعينات القرن التاسع عشر المتمثلة في ظهور العلاقات الرأسمالية في مجتمع الشرق العربي ، وبالتالي تكون طبقات جديدة ذات افكار جديدة نمت وترعرعت في رحم المجتمع النامي ، ذاتيا ، ونتيجة للاتصال بالفكر الاوربي الحديث وتياراته المختلفة موضوعيا •

يعتبر فرح انطون ، احد ابرز عناصر الفئة المثقفة العربية ، التي برزت على المسرح السياسي والاجتماعي في الدولة العثمانية • وهو احد المعبرين القلائل عن (النبت الجديد في الشرق)[٦] في الجناح الراديكالي في حركة التحرر الوطني ، في هذه الفترة الحساسة من تاريخ وطننا العربي •

تياران في الفكر الاوربي الليبرالي لعصر التنوير ، ومنحى القرن التاسع عشر اليقيني والليبرالي (الدراونية الاجتماعية) • كان لحركة التنوير تأثير فعال على فكر فرح انطون ، وهذا مانلاحظه في كتاباته ، وربما كان

(٥) لوتسكي ، تاريخ الاقطار العربية ، بغداد ١٩٧١ ، ص ٢٧ •

(٦) مقتبسة من كتاب (ابن رشد وفلسفته) لفرح انطون القاهرة ١٩٣٠ ص ١ •

لمونتسكيو ، وروسو ، وفولتير ، اكبر الاثر[٧] وطرح مونتسكيو ، تحليلات ثمينة للواقع الاجتماعي كانت في الواقع ثورية ، ووجدت صدى واسعا لدى بعض مثقفي العرب في الدولة العثمانية . واتاحت لهم افكار مونتسكيو وخصوصا فكرة (الحاجات المعينة والظروف المحددة) وفكره (الزمان والمكان) ، باعتبارهما افكارا اساسية في تكوين القوانين والدستور ، مما يمكنهم وانطون منهم ، فهم التاريخ والمجتمع العربي السائد . كذلك ساعدت شروحات مونتسكيو عن فصل السلطات في الدولة الى نتائج ثورية ليس بالنسبة للفكر السياسي السائد ، بل تعداه ايضا الى الاسس النظرية للنظرة الاسلامية التقليدية للمجتمع والدولة . ان روح التسامح التي تخللت كتابات مونتسكيو ، زودت انطون بالرؤية الراديكالية في النظر للامور ، وفي الدعوة للتسامح السياسي والاجتماعي والديني (بين المسيحيين والمسلمين)[٨] واوضح انطون نفسه ، انه يكتب كأنسان لا كمسلم او كمسيحي ، وكل ما يكتبه بأسم الانسانية فقط[٩] .

ان افكار روسو كان لها تأثير على فكر انطون ، وذلك ما نلاحظه في تأكيده على (الحق الطبيعي) و (حقوق الانسان) وتأكيده على الحكومة الدستورية والتمثيلية . وربما يمكن القول كان فولتير الاكثر تأثيرا في الفكر الفلسفي[١٠] لفرح انطون . ويلاحظ ان لروحه النقدية وسعة صدره في المسائل الفلسفية والدينية ، وقعا خاصا لدى فرح انطون ، وربما معارضة فولتير لرجال الدين ، كان الاتجاه الرئيسي والخط العام لافكار فرح انطون ، وهذا ما نلاحظه في معارضته لافكار الامام محمد عبدة واراء الشيخ رشيد

(٧) لقد ترجم انطون ، مقالات عن روسو ، فولتير ، ونشرها في مجلته (الجامعة) انظر ، محمد رشيد رضا ، المصدر نفسه ، ص ٨٠٥ .

(٨) و (٩) انظر انطون ، ابن رشد وفلسفته ص ١٨٢ و ٢١٦ .

(١٠) يمكن ملاحظة ذلك ، في كتابات فرح انطون ، (ابن رشد) ص ١ – ٨١ ، ومجموعة مقالاته في الجامعة ص ٨٥ وما بعدها .

رضا[١١] وفي نقده للتعصب الديني ودعوته للتسامح الديني[١٢] .

ويعتبر اوكست كونت ، وارنست رينان ، وغوستاف لوبون وفرنسيس بيكون وغيرهما قد اثاروا اهتماما ، لدى مفكري عصر النهضة العربية الحديثة ، ووجدت افكار بيكون ورينان مكانة خاصة لدى فرح انطون . وافرد فرح انطون حوالي اربع صفحات من كتابه (ابن رشد)[١٣] للحديث عن افكار بيكون وفلسفته الحديثة (باعتباره اول من بدأ بهدم الفلسفة اللاهوتية الحديثة لاقامة العلم الوضعي الجديد المبني على المشاهدة والتجربة والامتحان) وأنه المسؤول عن بث (روح الحرية في العقل والعلم والعمل فأحياها معا) باعتبار انه قد حرر (عقول العلماء والفلاسفة من قيود الماضي واعد للعلم ميدانا فسيحا قرن فيه العلم بالعمل فنشأت عنه الاكتشافات والاختراعات التي عرفت في عالم العلم والصناعة والزراعة)[١٤] .

يعتبر فرح انطون من الزاوية الفكرية ، اقرب المثقفين العرب المتأثرين بفكر ارنست رينان ، وقد قدم انطون عرضا منهجيا لافكار رينان عن طريق ترجمته لكتابة (حياة المسيح)[١٥] ويلاحظ ، ان منهج رينان واضح جدا في كتاب

(١١) انظر نص المجادلة بين رشيد رضا وانطون حول تأليف الاخير كتاب (ابن رشد وفلسفته) . ويمكن اعتبار هذه المجادلات من اعنف المجادلات في تاريخنا الحديث واخصبها . وقد نشرت على صفحات مجلة انطون ، (الجامعة) وجمعت ونشرت كملحق في كتاب (ابن رشد) ص ٨٥ . وقد الف الامام محمد عبده كتابا في الرد على كتابات انطون واسماه (الاسلام والمسيحية) . انظر ايضا : محمد رشيد رضا ، المصدر السابق .

(١٢) انطون ، ابن رشد ، ص ١٤٥ و ١٤٦ و ١٤٧ و ١٤٩ و ١٥٠ .

(١٣) ص ٨١ و ٨٢ و ٨٣ و ٨٤ .

(١٤) المصدر نفسه ص ٨١ و ٨٤ .

(١٥) يعتبر كتاب (حياة المسيح) لرينان ، من اهم اثار فرح انطون ، انظر ، الزركلي ص ٣٤١ . حوراني ٣٠٤ . ورشيد رضا ص ٨٠٩ .

انطون عن ابن رشد وفلسفته[16] .

لابد من استعراض موجز ، لافكار ، رينان[17] لمعرفة فلسفته واثرها على فكر فرح انطون ، تأثر رينان بالفلسفة الالمانية ، وخصوصا هيجل واطلع على اللغات السامية ، وتخصص باللغة العبرية . وقد توصل الى ان الدين المسيحي يرجع الى ثلاث عناصر : العنصر الاول : يتصل بالاخلاق وما قد يتعرض لها من الاثام والخطايا وعلاج للنفوس المريضة . والعنصر الثاني : العنصر اللاهوتي وهو الذي يتصل بالعقيدة والاسرار وطبيعة العقيدة المسيحية والعنصر الاخير ، هو العنصر التاريخي الذي يتصل بنشأة المسيح وحياته وما عرض له من الخطوب وما انتهى اليه امره ، ثم ما نشأ عن ذلك من سيرة الرسل وانتشار الدين .

وقد ذكر رينان افكاره هذه في كتابه (حياة المسيح) والذي كما قال : طه حسين[18] ان صدور هذا الكتاب ، اضاف شرا الى شر ، وثورة الى ثورة ، وان كتابه اغضب رجال الدين والمحافظين والفلاسفة الذين لم يكونوا من انصار الحرية ولا من انصار التأثر بالمذهب الجديد . وقال رينان ، ان من يقرأ الاناجيل والتعاليم المسيحية لا يشك في انه يعني عناية واضحة بتهذيب النفس واصلاح الخلق ، وشفاء الانسان من الامراض الفردية والاجتماعية . ولهذا لم يتردد رينان في حب هذا العنصر من عناصر الدين المسيحي ، اما ما يتعلق بالعنصر الاخر ، طبيعة الايمان والعقيدة المسيحية ، والاسرار التي تقوم عليها المسيحية بالتوحيد واللاهوت المسيحي ونتيجة لتأثر رينان بالفكر الهيجلي ، فقد اخذ يتشكك بهذه الاسرار ولكنه اكد من جهة اخرى ان حياة

---

(١٦) صدر هذا الكتاب في القاهرة عام ١٩٠٣ .

(١٧) حول حياة رينان وافكاره وفلسفته انظر ، طه حسين ، اراء حرة ، القاهرة المطبعة العصرية لا . ت ، ص ١٧١ – ١٨٤ .

(١٨) طه حسين ، ١٨١ .

الانسانية لاقيمة لها بدون ان يشرف عليها الدين وينظمها . واوضح انه يجب ان تنتقل امور الانسانية من الدين الى العلم ، ويجب ان يكون الحكم الى العلماء لا الى رجال الدين كما كانت ، ولا الى رجال السياسة كما هي الان . واذا فلا بد من ان تتطور الانسانية بحيث تصبح الحكومة فيها مؤلفة من العلماء ، علماء يتقنون العلم بشؤون الانسان على اختلافها ، يتقنون العلم بالطبيعة وما يعرض لها من الخطوب وما يدبر فيها من قوانين . ويرى رينان ان كل حكومة لاتعتمد على العلم لاقيمة لها ، وكل حكومة لايكون العلم قوامها فهي حكومة قائمة على الالحاد في العلم كما ان هناك الحاد في الدين[19] .

لعل من سوء حظ فرح انطون ان يقرأ ويطلع ويترجم اثار رينان الفلسفية والتي على روعتها وعمقها الفلسفي وكفاحها ضد النظم الاقطاعية المعرقلة للتطور الاجتماعي ، فقد وجد انطون فيها كل شيء اسرافا في الشك ولهوا في النظريات وعبثا بالحقائق واندفاعا في القبول والرفض او الاستعداد لقبول كل نظرية وتلقي كل رأي في اطمئنان أو اضطراب . واذا كان طه حسين ، وما يحمله من خلفية فكرية رصينة وزاد ثقافي وادبي غزير ، قد وجد في افكار (رينان) ، خطورة للذين يقرأون رينان من ان يتقوه (٢٠) ، بله فرح انطون الذي تفتح ذهنه على افكار رينان وفلسفته وافكاره وثقافته . فقد اصبح الرجل (فرح) يقبل جميع المذاهب الفلسفية على اختلافها لاينكر شيئا انكارا صريحا ، ولايؤمن بشيء ايمانا صريحا ، كان يلقي افكاره في مجلة (الجامعة) وفي (رواياته) ويؤيدها بالحجج والبراهين ، ثم ينتقل الى فلسفة اخرى وبراهين وادلة اخرى .

اثقل انطون كاهل نفسه بقراءات واسعة من كتابات (روسو ، فولتير ،

---

(١٩) المصدر نفسه ١٧٨ وما بعدها ، تأثر انطون بذلك ، انظر كتابه ، ابن رشد ، ص ١٩٠ و ١٢٢ .

(٢٠) ص ١٨٤

داروين ، نيتشه ، ماركس ، تولستوي ، ابن رشد ، ابن طفيل ، الغزالي ، وعمر الخيام وغيرهم)[٢١] • وتنقل بينهم جميعا يعجب بهذا وذاك في آن واحـد ، وتعذبه حيرته بين هؤلاء جميعا ، كل منهم وشيء اخـر يرفضـه • وتـمزق بينهم (على ان هذه الثقافة المأخوذة من مطالعات سريعة غير منتظمة ، فوضوية ، متنوعة غير محدودة ، مفرطة غير معتدلة ، لا يسـهل في الغـالب هضـمها على ملتهمها)[٢٢] •

والحقيقة ان فرح انطون كان يتمزق بين فلسفات عديدة ، كان مؤمنـا وغير متدين ، مسيحيا لايصلي ، ولم نره يوميا في كنيسة ، وسمعنا انه حضر قداسا على ان ذلك لايمنع ان يكون مسيحيا مخلصا كما قال احد زملائه[٢٣] •

احتار فرح بين هذا وذاك ، فهو اول من عرف المثقفين العرب بالفيلسوف (نيتشه) واول من عرفهم ، بالمعلم ، كما اسماه ، (كارل ماركس) ، واول من ترجم احدى روايات (مكسيم غوركي) ، وهكذا (التقى الصيف والشتاء على سطح واحد) كما قال ، مارون عبود[٢٤] •

ولكن ، فرح انطون ، وان كان قد مضى سريعا ، فاننـا لانسـتطيع ان نجاريه في سرعته ، بل يتعين علينا ان نتوقف طويلا محاولين تأمل هذه الظاهرة الفكرية في تأن عل فيها فائدة وعبرة للفئة العربية المعاصرة وقدوة لاجيالنا الحاضرة التواقة لمعرفة تراث الامة العربية المجيدة وكفاحها ضـد الرجعيـة والتخلف والاضطهاد •

---

(٢١) مارون عبود ، المصدر السابق ص ٧ •

(٢٢) مناهل الادب ، عدد (٩) ، فرح انطون ، بيروت ١٩٥٠ ص ٤ مقتبس من كتاب رفعت السعيد ، ثلاثة لبنانيين في القاهرة ، ص ٧٦ •

(٢٣) هو محمود ابراهيم ، صاحب جريدة الاكسبريس المصرية ، ملحق مجلـة السيدات والرجال ، وتراس تحريرها شقيقة انطون (روز) ، انظر د • السعيد ص ٧٧ •

(٢٤) المصدر نفسه ص ٢٤ •

يدل اختيار فرح انطون كتاب رينان (حياة المسيح) لترجمته ، علـى مدى التأثر بافكار رينان وخصوصا في كتاب انطون (ابن رشد)[٢٥] فالاراء الواردة في كتاب انطون هي نفسها في كتاب رينان ولو انها جردت من صوت المعلم (رينان) ولكن انشاء رينان الرائع المؤثر هو نفسه في كتاب انطون السالف الذكر • ودعا انطون ، كما دعا معلمه (رينان) (الى حل النزاع) بين العلم والدين ، وذلك بتجديد الحقل الخاص بكل منهما ، فقد دعا انطون الى فصل الجوهري عن العرضي في جميع الاديان • والجوهري ، بنظـر ، انطون هو مجموعة المبادىء ، والعرض مجموعة الشرائع عامـة كانت أم خاصة • فاذا تفحصنا المبادىء ، وجدنا انها واحدة في جميع الاديان ، وكذلك اذا تفحصنا الشرائع ، حسب قول فرح لوجدنا ان غايتها الوحيدة انما هي حث الناس على الفضيلة • فالثابت فيها هو اذن المبدأ الخلقي الكامن وراءها،ويجب يسمح لها تفسيرها بالقيام بوظيفتها حتى لو اقتضى ذلك تأويلها[٢٦] •

يعبر كتاب فرح انطون (ابن رشد وفلسفته) تعبيرا جيدا عن افكـار انطون الفلسفية والفكرية والاخلاقية وفي الدين والسياسـة • وقد اهـدى

---

(٢٥) يبدو لي ان كتاب فرح انطون (ابن رشد وفلسفته) الصادر في القاهرة باللغة العربية عام ١٩٠٣ عبارة عن (اقتباس) لاطروحة ارنست رينان الموسومة (ابن رشد وآثاره) وقد تقدم بها الى جامعة السـربون • وكتاب (رينان) هذا ، كما يقول طه حسين (ص ١٧١) احسن دراسة وضعت للآن عن هذا الفيلسوف العربي العظيم ، الا ان هذه الحقيقة لم يشر اليها احد ، من المختلفين معه ، مثل ، رشيد رضا في كتابه (تاريخ الاستاذ الامام ، الشيخ محمد عبده ، القاهرة ١٩٣١ ، والامام محمد عبده في كتابه (الاسلام والمسيحية) وما بعدها • وقد يكون معرفتهم اللغة الفرنسية حائلا دون معرفة ذلك ، كما ان المصادر الاخرى ، لا تشير الى ذلك ، سوى تأثر انطون في افكار رينان ، انظر ، حوراني : ٣٠٥ •
هاشم شرابي : ص ٨٣ •
مارون عبود : ٢٤ وما بعدها •

(٢٦) فرح انطون ، ابن رشد ، ص ١٢٠ •

كتابه ، الى (النبت الجديد في الشرق) الى هذا النبت في الاسلام والمسيحية وغيرهما ، نهدي هذا الكتاب • وقال ، ونحن على ثقة من انهم سيطالعونه بهدوء وامعان دون ان يتركوا سلطة على نفوسهم • واوضح ، ونريد بالنبت الجديد ، اولئك العقلاء من كل ملة وفي كل دين في الشرق الذين عرفوا مضار مزج الدين بالدنيا في عصر كهذا العصر فصاروا يطالبون وضع اديانهم جانبا في مكان مقدس محترم ليتمكنوا من الاتحاد حقيقيا ومجاراة التمدن الاوربي • وقال انطون : انا اعرف ان الوفا وملايين من أخواننا من المسلمين والمسيحيين لايوافقون على كل ما جاء فيه (كتاب انطون) ولكننا قدمنا هذا الكتاب لعقلاء الشرق ، لانه اذا كان يرجى اصلاح شرقنا العزيز فهذا الاصلاح لايبنى الا عليهم • واساس هذا الاصلاح ، كما يرى انطون ، يجب ان يقوم على احترام حرية الفكر والنشر احتراما مطلقا لتنجلي الحقائق والمبادىء شيئا فشيئا وانه وضع كتابه تحت حماية عقلاء الشرق(٢٧) •

وشرح انطون السبب في اختياره لابن رشد والكتابة عنه ، فقال : ان غرضه انما هو تقريب الابعاد بين عناصر الشرق وغسل القلوب وجمع الكلمة ••• لا بأن يبرهن الفريق الواحد للفريق الثاني ان دينه افضل من دينه ، فهذا امر قد مضى زمانه ••• فهذا الزمان زمان العلم والفلسفة (الذي يقضي) بان يحترم كل فريق رأي غيره ومعتقده(٢٨) •

ويرى انطون ان جميع الاديان انما هي دين واحد تعلم بعض المبادىء العامة • اما الشرائع الدينية فما هي الا وسائل لغاية • فالطبيعة البشرية واحدة في نظر جميع الاديان ، والحقوق والواجبات البشرية واحدة ايضا ، حتى ان الذين لادين لهم لايختلفون عن غيرهم في الطبيعة والحقوق •

وبين انطون ، اننا في مقدمة الذين يسرهم اتفاق الدين والفلسفة في كل ملة

(٢٧) انظر : نص اهداء فرح انطون في كتابه (ابن رشد وفلسفته) •
(٢٨) المصدر نفسه : ٦ و ٧ •

وانه يجب التأويل لتطبيق الدين على العلم ، لا العلم على الدين ، فكل شيء لايقبله العقل والبرهان يجب تأويله(٢٩) •

وامن فرح بالعقل ، وانه لايعرف حد لبحثه ، ومتى وضع له حد ،فان ذلك بمثابة خنقة وقتله ، ولو كان (خنق) العقل وقتله امر محقا دائما لكان الخطب كبيرا ، ولكن العقل يتغلب على الحاجز الموضوع امامه فينسفه نسفا مهما كان قويا • وحينئذ تزلزل الارض زلزالها وتخرج اثقالها ، وتسقط مبادىء وتقوم مبادىء(٣٠) •

ان الفهم السليم للتاريخ دما يحرك عمل الانسان هو وحده القادر على الوصول الى نظرية شرعية للمجتمع ولاساليب اصلاحه ، فهم كهذا ، لايمكنه ان يستمد الا من العلم فيجب ان لانعطي المبدأ الديني اولوية غيرمشروطة(٣١) اذ انه من غير مصلحة الدين ان يكون اداة سياسية • ان الاستغلال السياسي للدين يفضي الى التجفيف التدريجي لمنابع الايمان والحيوية الروحية • ومن هنا برزت الحاجة الماسة للفصل بين الدين والدولة لان هذا الوضع هو الوحيد الذي يسكن فيه الروح الدينية ان تكون ذات منفعة سياسية في الوقت الذي تضمنت هي الابتعاد عن التأثيرات المترسبة للحوافز الدنيوية •

عالج انطون في سلسلة مقالات صدرت في الجامعة (٣٢) عددا من المسائل التي عالجها كتاب اخرون ، معالجة هامشية ، فانتقد الطبيعة غير العلمية للافغاني ، كذلك افكار محمد عبدة السياسية ، واصفا موقفها المثالي ، بالا

(٢٩) ايضا : ١١٩ •
(٣٠) ايضا : ١٢٢ •
(٣١) المصدر نفسه ص ١٥٦ •
(٣٢) صدرت هذه المجلة في القاهرة لمدة ست سنوات ١٨٩٩ – ١٩٠٥ • وفي عام ١٩٠٥ هاجر انطون الى الولايات المتحدة ، فصدرت في نيويورك بين ١٩٠٦ و ١٩٠٨ حين احس انطون بالضياع قرر العودة الى مصر •

عملية(٣٣) . الا انه من جهة اخرى ابدى احتراما جما لعبده . اما الافغاني فتكلم عليه في لطف ولكن مع نوع من التهكم قال (كان رحمه الله يعيش بالفكر من اجل الفكر كجميع المتحمسين الايديولوجيين . والدهر وان اناخ عليه بكلكلة وكواه بنار اختياراته لم يجعله نفعيا محضا ويصرف فكره الى الفوائد العملية بدل الفوائد النظرية(٣٤) .

اما بالنسبة لنظرية انطون في الدولة . فالدولة يجب ان تقوم على الحرية والمساواة ويجب ان تتوخى بقوانينها وسياستها السعادة في هذه الدنيا والقوة الوطنية والسلم بين الامم ، ولايمكن ان تحقق ذلك ، الا اذا كانت السلطة العلمانية مستقلة عن أي سلطة اخرى وخصوصا السلطة الدينية .

واوضح ، انطون ان الدول الحديثة لم تعد قائمة على الدين ، بل على امرين : الوحدة الوطنية وتقنيات العلم الحديث . ويعطي مثلا على التغير ، اندحار الوهابيين على يد جيوش محمد علي ، ثم يقول : لو كانت نظرية محمد عبده في ان الاصلاح الديني يؤدي الى القوة ، نظرية صادقة لانتصر الوهابيون لكنهم خسروا بالفعل لان محمد علي اول من ادرك في الشرق ان العالم قد تغير . ورأى انطون بان امل محمد عبده في الجامعة الاسلامية باطل ، فهو لن يتحقق ، واذا تحقق ، فلن يغير ذلك شيئا ، لانها لن تولد ، القوة الضرورية لصد الخطر الاوربي(٣٥) ، والامثلة كثيرة من التاريخ المسيحي والاسلامي على السواء ، تثبت كلها ان الوحدة الدينية غير ممكنة ، وان على الدولة ان تجد لها نوعا آخر من الوحدة اذا ما ارادت البقاء . وان على الدولة ان تجدلها نوعا اخر من الولاء القومي والفصل بين السلطة المدنية والسلطة الدينية . وفي

(٣٣) هاشم شرابي ، ص ١٥٦ .
(٣٤) المصدر نفسه ص ١٥٦ .
(٣٥) انظر الحوار التاريخي مع محمد عبده في كتاب ابن رشد ، ص ١٧٦ و ١٧٧ .

هذا قوله (فلا مدنية حقيقية ولاتساهل ولا عدل ولا مساواة ولا امن ولا الفة ولا حرية ولا علم ولا فلسفة ولا تقدم في الداخل الا بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية(٣٦) .

ويرى محمد عبده ، ان فصل الدين عن الدولة مستحيل تحقيقه ، ذلك ان الحاكم لابدله من ان ينتمي الى دين معين ،فكيف يمكنه ان يتحرر في افعاله من تأثير هذا الدين ؟ فالانسان وحده ، لامجرد شيئين يتصل احدهما بالاخر ، هي الجسد والروح اللذان لا انفصال بين وظائفهما فكيف يمكن ، اذن ، فصل السلطات التي تهيمن عليها ؟ عن هذا يجيب فرح انطون ، بعرض النظرية الديمقراطية ، بل على ضوء القوانين التي تضعها جمعية ممثلي الشعب . والشعب يجب ان يكون سيدا ، والا ساد الاستبداد أو الفوضى . ولممثلي الشعب حكمة اوسع من حكمة أي حاكم مفرد ، وذكاؤهم المشترك ادق من ذكاء أي واحد منهم بمفرده(٣٧) . وفي هذا تكمن ، ضمنا نظرية انطون في الدولة . فالدولة يجب ان تقوم على الحرية والمساواة . وعندما تكون الحكومة علمانية ، فضلا عن تمتعها بسلطان فائق ، وتضع حدودا معينة للسلطة الدينية ،لايبقى هناك مجال للبلبلة او الاختلاط ، ولايتعدى الدين او الحكومة احداهما على حدود الاخر . ويرى انطون ان دينا جديدا يهم الجماهير بزغ في العالم ، هي الاشتراكية والتي اسماها (دين الانسانية)(٣٨) .

ان وظيفة الحكومة المدنية بنظر انطون ، حماية حرية الانسان ، وفي جملتها ، حماية حرية الفكر ، والشخص متى كان حرا ، فان قواه تكون على اشدها ويستطيع ان يفيد نفسه وعائلته ووطنه في العلم والصناعة والزراعة

(٣٦) ايضا : ١٥٧ و ١٦٠ .
(٣٧) ايضا : ١٦١ .
(٣٨) ايضا : ١٦٩ .

والتجارة وآداب الاجتماع ، اضعاف الفائدة التي يقوم بها شخص تقيده حكومته[٣٩] والاهمية الثورية لاقوال انطون تلك انها قيلت في ظل دولة اقطاعية واستبداديه ، كالدولة العثمانية • وشن انطون هجوما على (الخوارق والمعجزات والعجائب)[٤٠] و (الكرامات والعجائب الخاصة بالاولياء[٤١] وقال ، نحن نرى في هذه الاقوال ضررا عظيما للدين بدلا من الفائدة • ومتى عمل جميع البشر ، بنظر انطون ، بفضائل اديانهم باخلاص فقد صارت الأديان كلها دينيا واحدا وهو (دين الفضيلة)[٤٢] •

اتجه اخيرا ، انطون اتجاها اجتماعيا في افكاره وارائه السياسية والاجتماعية وقد ساعده في ذلك اطلاعه على كتابات الفلاسفة الماديين والعلمانيين، بيكون، هيجل، داروين، ماركس• وطلع على الروايات الاجتماعية لتولستوي ومكسيم غوركي ، التي عالجت مشاكل الانسان والحياةالسياسية والاجتماعية • بالاضافة لاطلاعه على افكار واراء الفلاسفة المسلمين ، ابن رشد والغزالي ، وابن طفيل وابن عربي والمعري وغيرهم •

وقد احس انطون بان المادية ، اخذة في الامتداد كله مسببة حالة تتقوض فيها المبادىء القديمة وتقتلع فيها القوانين ••• والعجيب ان انطون قد زاد ميله نحو الاشتراكية ومبادئها ،اثروصولهالى الولايات المتحدةالامريكية في عام ١٩٠٧ • ويبدو ان اطلاعه عن كثب على النظام الرأسمالي المستغل والوضع البائس التي تعيشه الجماهير الكادحة كانا الدافع الاساسي في ذلك ، وساعداه على تجذير وعيه السياسي والاجتماعي •• ويمكن القول ان افكار وكتابات فرح انطون يمكن اعتبارها نقطة البداية ليسار تقدمي في الفكر

(٣٩) ص ١٥١ ، ١٦٧ .
(٤٠) ص ١٨١ .
(٤١) ص ١٨٩ .
(٤٢) ص ٢١٧ .

العربي المعاصر • وانه اختلف عن سائر الكتاب الاخرين بأنه عالج المسألة الاجتماعية معالجة شاملة ، الى حد ما ، ووجد في الغبن الاجتماعي وعدم المساواة الاقتصادية ، نتيجة صراع داخل المجتمع وليس نتيجة التطور الاجتماعي فقط • وارجع بسبب الصراع الى طبيعة النظام الاقتصادي التنافسي الذي يميز النظام الرأسمالي •

وخصوصية افكار فرح انطون ، في فترة عصر النهضة العربية ، تنطلق من ابتعادها عن الموقف البرجوازي وايمانه بالاشتراكية ، باعتبارها الخلاص الوحيد للانسانية وليس وعدا بالاصلاح فقط •

وفي كتابات انطون ، نرى لاول مرة في الفكر العربي احساسا بوجود الانسان الكادح ، وبوجود الطبقة المسحوقة الضخمة بالمجتمع العربي ، واول مرة ينظر للجماهير ، بان تكون هي مركز الاهتمام • ولم تكن مشكلة انطون تعريف معنى الاشتراكية واهدافها بل في اقامة النظام الاشتراكي[٤٣] وكان مقتنعا ، بانه غير كاف (ان يبشر المرء بالاشتراكية ان اراد تحقيقها) وقال : ربما كان من الضروري اقامة الاشتراكية بالقوة ، والا فان الاشتراكية (ستبقى الى الابد مجرد نظرية)[٤٤] ومن هنا صاغ الشعار القائل (اعملوا ولا تعلموا فقط)[٤٥] •

تكمن اهمية افكار انطون انها قيلت كما اسلفنا في ظل دولة مستبده ذات نظام اقطاعي كالدولة العثمانية ، والقيت في مجتمع ساكن قائم على

(٤٣) انظر ، فرح انطون ، ملحق مجلة السيدات والرجال (القاهرة ١٩٢٣) ص ٣٠ مقتبس من ، هاشم شرابي ، المصدر السابق ، ص ٩٤ .
(٤٤) اوضح انطون بقوله (ان بعث المبادىء الاشتراكية وحده لا يكفي لتأييد الاشتراكية بل لابد من تحريض انصارها على تنفيذها بالقوة ، ولابد من غرس فكرة التحريض في الناشئة الجديدة والا بقيت فلسفة نظرية فقط الى ما شاء الله) . انظر د . رفعت السعيد ، المصدر السابق ص ٧٠ .
(٤٥) هاشم شرابي ، المصدر السابق ص ٩٥ .

اساس الايمان بالاديان المنزلة ، ادت الى نتائج ثورية • وان كتبه ومقالاته ، اشبه بنشرة سياسية وقتئذ • وان ايمانه بالانسانية ، التي هي (الاخاء العام الذي يجب ان يشمل جميع البشر ويقصر دونه كل أخاء) رد على سياسة التتريك والاضطهاد القومي والديني ولهذا اوضح انطون انه اذا كان (زيد مسلما وخالد مسيحيا ويوسف يهوديا وكورنو بوذيا وسينو وثنيا ودريدرو كافرا معطلا يجحد كل الاديان ولايعتقد بشيء قطعيا — فهذه مسالة بينهم وبين خالقهم عز وجل ولا تعني البشر ولا يجوز لهؤلاء ان يتدخلوا فيها ولا ان يحرم اولئك باي سبب كان شيئا من حقهم الانساني[٤٦] •

ان ماقدمه ، فرح انطون ، عن المجتمع الرأسمالي ، بعد هجرته للولايات المتحدة الامريكية ، يعد دليلا مهما على نضج وعيه السياسي • ولم تبهره امريكا بكل تقدمها الصناعي والاقتصادي والدعائي ، كما بهرت الاخرين ، ولكنه استطاع ان ينفذ ببصيرته ووعيه السياسي الى العمق فيمحو الزخرف الخارجي ، ويحك الطلاء السطحي البراق ليجد تحتها ، الرأسمالية النتنة واسلوبها الوحشي في افتراس البشر •

وخلال جولته في الولايات المتحدة الامريكية ، وقف انطون ، امام شلالات (نياكرا) وكتب مقالة رائعة يناجي هذه الشلالات بقوله (اتذكر ايها الشلال يوما كان شاطئك مرتعا لاولئك الهنود المساكين قبل ان يصل اليك البيض ويغتصبوا ارضهم هذه ظلما وعدوانا) ثم يتحدث انطون عن البناء الرأسمالي الذي غير وجه امريكا واحالها الى مجتمع جديد (قد غيروا ارضك ومن عليها ايها الشيخ ، وهم يظنون انهم حسنوها وحسنوك وجملوها وجملوك وما جمالهم الا كجمال المرأة الذميمة ، زخرف خارجي وطلاء سطحي ، حك هذا الطلاء قليلا فتجد تحته جيفة منتنه) ثم يخاطب الشلال •• (ان وحوش الامس التي كانت ترتع على شاطئه ارحم واجمل من وحوش الرأسمالية فان

(٤٦) انطون ، ابن رشد ، ص ١٤٨ •

الامم تتعادى وتتسلح تأهبا لاقتتال افظع من اقتتال الذئاب ، والشعوب يأكل في داخلها كبيرها صغيرها ، وقويها ضعيفها كما تفعل اسماكك) ثم يمضي سريعا من الادب الى السياسة ، فيقول فروكفلر يملك من المال الف مليون بينما ملايين من البشر يستطعمون الخبز ولا يجدونه ، وهو يستخدمهم باجور تافهة لزيادة ثروته الملطخة بدمائهم وعرقهم ، وهم يسكتون ويعملون لانهم مضطرون، والسلطة في الارض ضعفت وكادت تنحل فان الناس اسقطوا العروش والملوك ولكنهم اقاموا مكانها ملوكا لكل واحد منهم ملايين من الرؤوس، فقويت بذلك سلطة المشعوذين والدجالين والجهلاء الناصحين الذين يتملقون الشعوب ويضلونهم ، كما كان اخصاء الملوك يتملقونهم ويضلونهم والافراد يتخاصمون ويتعادون ويفترس بعضهم بعضا بايديهم وبالسنتهم واقلامهم ، تنازعا على الرزق والسيادة ••• وتنج هذا الرزق وهذه السيادة اذ كانت لاتبلغ اليهما الا بالرجوع الى وحشية وهمجية اشد من الوحشية والهمجية الاولى ••• فاذا كان كل هذا هكذا ، ايها الشلال فاين الارتقاء الذي يزعمونه ؟ وما فائدتك في استبدال ذئابك القديمة بهذه الذئاب الجديدة التي لها طباع تلك[٤٧] •

وقد حظي مقال انطون هذا ، بصيت ذائع ، الى حد ان بعضهم اعتبره «من اقوى وأجمل وانفع ماكتب في العالم بأية لغة من اللغات»[٤٨] •

وفي مقال لفرح انطون بعنوان (افات التمدن الحالي) يدين النظام الرأسمالي ادانة واضحة ، مؤكدا ، انه استطاع ان يصل بهجومه على الاغنياء من مجرد التعاطف مع الفقراء والمظلومين الى الادراك الواعي لحقائق الصراع الطبقي في المجتمع الرأسمالي ، مؤكدا بذلك ريادته في هذا الميدان الصعب •

(٤٧) فرح انطون ، مناهل الادب ، بيروت ١٩٥٠ ، ص ٤٢ مقتبس من كتاب (ثلاثة لبنانيين) ، الدكتور رفعت السعيد ، ص ٨١ و ٨٢ •

(٤٨) انظر : لطفي جمعة ، خطاب في حفل التأبين ، ملحق مجلة السيدات والرجال ، ص ٢٢ ، د. رفعت السعيد ، ص ٨٣ •

للتمدن الحالي ، افات ، كما ان له حسنات • ومن هذه الافات تسكن بعض البشر من دوس القانون استنادا الى القانون وقتل حقوق الانسان استنادا الى قانون حقوق الانسان • ومن هذا القبيل حالات الغنى الطائلة في امريكا • فان انصار حرية الغنى يقولون ان مداخلة الحكومة في شؤون ارباب الاموال لتحديد غناهم ومراقبته امر يخالف مبدأ الملكية المقدس ويفضي الى الفوضى فضلا عن منعه بذور النشاط والجد في العالم • ويهاجم انطون (خطر الاحتكار) في امريكا ، فشركة تحتكر الفولاذ وواحدة تحتكر السكر واخرى تحتكر البن ••• وهذا الاحتكار لا يستوجب اذنا من الحكومة ولا رضى من ارباب الصناعة ولا موافقة من الاهالي بل يتم بالرغم عنها جميعا •

واشار انطون الى الارباح الطائلة التي يجنيها الاغنياء من البورصة بلا تعب ولا نصب ، مبنى اكثره على غش الناس وخداعهم ليضاعفوا ثروتهم الطائلة بحركات مالية تستنزف اموال الامة • وشبه ، انطون ، الرأسماليين بدودة (العلق) التي تمتص دماء البشر قائلا (ومن الغريب انه ما احد يجهل ما انطوت عليه هذه العلق الهائلة التي تمتص دماء الشعوب وحياتهم هؤلاء الذين يدعون الشرف والاستقامة لكونهم لا يخالفون نص القانون [٤٩] •

ويعتبر ، فرح انطون ، اول من حذر من (الوحش الوحش الوحش)[٥٠] داء (الاستغلال الرأسمالي) الذي بدأ ينتشر في الشرق انتشاره في الغرب • وقال ، فقد قرأنا في شهر واحد فقط عدة فصول في الجرائد العربية فيها بروق ورعود على سلطان المال في الشرق ، مقالة في جريدة الصاعقة المصرية ، هي في الحقيقة صاعقة لم نقرأ قط مقالة بليغة بموضوع كموضوعها ، واخرى في رصيفة في البرازيل لمراسل ، تكلم عن حالة الطبقات الاجتماعية •

(٤٩) انظر ، مجلة الجامعة السنة الثانية ج ٢٢ ، ص ٢٣ و ٢٤ في عام ١٩٠١ .

(٥٠) اسم احد الروايات ، لفرح انطون ، انظر ، مارون عبود ، جدد وقدماء بيروت ، ١٩٦٣ ، ص ٥٥ .

ويظهر ، والقول لانطون ، لنا مما نلاحظه ونقرأه ونسمعه حينا بعد حين ان هذه الحركة اخذة في الامتداد والانتشار ، ونحن نأسف لها لانها ستكون في مستقبل قريب او بعيد سبب نزاع شديد بين الشرقيين كما هي بين الغربيين، ولكن للاسف لايوقف مجرى النواميس الطبيعية •

وربط انطون بين الفساد السياسي والفساد الاجتماعي بقوله ، «ومتى جاء ذلك الزمن ، صار معلوما في الشرق ان هدم الفساد الاجتماعي يستحيل وجود الفساد السياسى لانه بدون الفساد الاجتماعي يستحيل وجود الفساد السياسي [٥١] وفي هذه الفترة اخرج انطون رائعته المبدعة ، رواية ، الدين والعلم والمال ، وفيها اقام ثلاث مدن احداها يسودها الدين والاخرى يسودها العلم والثالثة يسودها المال ، ثم اقام حوارا وصراعا بين القوى الاجتماعية المختلفة في هذه المدن الثلاث ابرز فيه بصورة واضحة حقائق الصراع الطبقي بين العمال ورأس المال •

ويبدو لي ، ان كتيب انطون هذا ، وثيقة هامة تتناول بالايضاح وبشكل مباشر ، وربما لاول مرة في تاريخ الكتاب العربي ، افكار الاستغلال الرأسمالي والحل الاشتراكي لمشاكل الامة ، والوقوف الى جانب الفقراء من اجل مستقبلهم •

فعلى غلاف كتابه ، عبارة ذات مغزى (فليحذر العالم من يوم يصير فيه الضعفاء اقوياء ، والاقوياء ضعفاء) • وبين انطون ، بان الدين والعلم والمال هو الرواية الاولى من رواياته ، وموضوعها معروف من عنوانه • وقد سماه رواية على سبيل التساهل ، لانه عبارة عن بحث فلسفي اجتماعي في علاقة المال والعلم والدين وهو ما يسمونه في اوربا (بالمسألة الاجتماعية ، وهي

(٥١) الجامعة ، السنة الرابعة عام ١٩٠٣ ، العدد ٩ و ١٠ ، مقال « اورشليم الجديدة وآراء الرصفاء ، ص ٣٧٣ » .

عندهم في المنزلة الاولى من الاهمية لان مدينتهم متوقفة عليها)[٥٢] .

ومحور «الرواية» ان شابا اسمه (سليم) في الثلاثين من عمره جاء من اقاصي البلاد ليشاهد المدن الثلاث التي سمع بها من بلده ، وسليم هذا رجل قد درس علوم المتقدمين والمتأخرين ووقف على المبادىء القديمة والحديثة وصار يطلب ضالته بينها على غير فائدة . فلا المدنيات القديمة كانت تعجبه لان حقوق الضعفاء كانت مهضومة فيها وبناؤها قائم على القوة والضعف ولا المدنيات الحديثة ترضيه لانها جعلت الحياة عراكا هائلا وجهادا عظيما بين الناس » .

ولكن ذلك لا يعني ان سليما يبقى بغير هدف اذا كان القديم لا يعجبه والحديث لاحجبه ، ذلك (انه وهو في المدرسة قد لمح في ذهنه عصرا يسميه مؤرخو اليونان العصر الذهبي ويسميه كتاب المسيحية عصر الفردوس الارضي، فبقي منه في فكره اثر كان يحضر فيه كلما رأى زحام الحياة وجهادها بين افرادها » .

اما جوهر موضوع الرواية ، هو الحوار الذي اجراه المؤلف ، بين القوى المتصارعة امام ، رئيس الاجتماع وهو رئيس جمهورية المدن الثلاث ، الذي افتتح الجلسة قائلا : « اما الان فاننا نسمع الشكاوى التي اجتمعنا للنظر فيها بصدق وحسن نية . » .

فنهض ، زعيم العمال ، وقال « ان شكوى العمال من طمع ارباب الاموال . فالعمال يتعبون ويكدحون وارباب الاموال يتمتعون بتعبهم ويتلذذون فمن العدل ان يشارك هؤلاء في كل الاشياء .. » .

ولنتأمل عبقرية ، انطون ، وهو يلخص بدقة بالغة اسلوب الرأسماليين في مجابهة مطالب العمال العادلة « .. فنهض النائب عن ارباب الاموال وقال :

(٥٢) فرح انطون ، الدين والعلم والمال ، المدن الثلاث ، الاسكندرية (١) تموز ١٩٠٣ ، المنشورة في المؤلفات الروائية لفرح انطون ، قدم لها : د . ادونيس العكره ، بيروت : ١٩٧٩ ص ٤٤ .

ان شكوى ارباب الاموال لم تكن من العملة انفسهم فاننا نحب عمالنا كما نحب اولادنا ، كيف لا وهم رفقاؤنا وشركاؤنا في اعمالنا ، وأنما شكوانا من بعض الطامعين الذين يثيرون خواطرهم علينا ويحرضون طبقتهم على طبقتنا . فلتفصل الحكومة العمال عن هؤلاء المحرضين فيستتب السلام بين الجميع .

فنهض رجل من فريق العلم وقال : اذا صح انه متى رفعت يد الذين يسمونهم محرضين بين العمال واصحاب الاموال فان السلام يستتب في الحال فقد زال نصف شكوى اهل المال . وانما يبقى عليهم في هذا الموضوع ان يبحثوا هل يرافق السلام الذي يحصل حينئذ هناء العمال وراحتهم وسعادتهم ام يبقى سلامهم موتا أدبيا وماديا كسلام اهل القبور . واننا معشر اهل العلم نفتخر في هذا العصر بأننا حللنا في المسألة محل اهل الاديان وصار همنا الاول التفكير بأنهاض الشعوب وترقيتها بينما نرى اهل الاديان يسلمون الشعوب بايديهم الى الاطماع المختلفة . فكان مثلهم مثل ملوك يخلعون انفسهم بانفسهم ولذلك نراهم يكثرون من التزلف للاغنياء وارباب الاموال ويجارونهم في كل شيء حتى في ما يخالف مبادئهم الدينية وينقص اساسها ويلهون الشعب في اثناء ذلك بالتدجيل عليه ليشغلوه بالاوهام والاحلام عن مصالحه الحقيقية [٥٣] .

وبعد ان انتهت جلسة تحديد الشكاوى عقدت جلسة اخرى للمرافعات وكان اول المتكلمين ، احد زعماء العمال فقال لقد احسنتم في تخصيص الجلسة الاولى لمشاكل العمال واصحاب الاعمال ... لذلك نطلب منكم نحن العمال باسم الانسانية والاخاء البشري ان تنصفونا فاننا نحن الاكثرية في البلاد وبدوننا لاتقدرون ان تصنعوا شيئا... فحرام ان نصنع كل شيء وعلى ظهورنا تلقى كل الاحمال ثم تترك الحكومة فريقا قليلا من اصحاب الاموال يحتكر منافع البلاد وفوائدها وخيراتها ويسخر لنفسة الامة كلها . » .

(٥٣) المصدر نفسه ، ص ٥٨ و ٥٩

ودعا ممثل العمال ، اشراك العمال في ربح الاعمال ، ولكن (فلنتـــرك مسألة الربح جانبا ، ولننظر الى مسألة اخرى ، وهي ان بين العمال والمستخدمين قوما لاينالون في اليوم اكثر من فرنك واحد اجرة لهم فكيف يمكن ان يكفيهم هذا الفرنك خصوصا اذا كان لهم اولاد عليهم القيام باودهم ••• ثم ان العامل قد يمرض وقد يعجز وقد يموت فماذا يحل به وبعائلته ؟ •

وهنا ينتفض صائح من فريق المال: ولكن ماذا تريدون ان تضع الحكومة؟ والحكومة •• لا يمكنها التعرض لحق الملكية لانه من الحقوق التي لا تنقض وهل من حقها ان تتداخل بينكـم فتجبر ارباب الاعمال على زيادة اجوركـم ومقاسمتكم أرباحهم[٥٤] •

ويرد ممثل العمال مخاطبا فريق من المال بقوله ، انكم في خطأ عظيم فأن معامل الامة ومصانعها ومتاجرها واراضيها هي من مرافقها ومنافعها كالانهـر والابحر والهواء ولذلك لايجوز ان تكون ملكا لفرد ايا كان ، بل هي ملك لجميع الامة ، فعلى الامة ان تتولى ادارتها بنفسها وتوزع ارباحها بـــين ابنائهـــا[٥٥] •

وهنا يجري نقاش محتدم وطويل ، بين العمال والعلماء في جانب ورجال المال والدين من جانب اخر ، ويجري دفاع مجيد عن حقوق العمال على لسان العمال والعلماء ••• ويحاول فريق من العلماء المعتدلين اللجوء الى حلول وسط ويحاولون تسوية الخلافات بين الرأسماليين والعمال على زيادة الاجور وفرض ضريبة الايراد ويعدون قانونا بذلك الا ان الناس ، صحوا ، صباح اليــوم التالي ليجدوا على الجدران في كل مكان اعلانات طويلة عنوانها باحرف غليظة الشعب المهذب يخون الشعب المسكين ، وهو نص هام ، ندرجه ، كما ورد عند انطــون ، في روايته •

(٥٤) ص ٦٤ و ٦٥ •
(٥٥) ص ٧٢ •

فقد وجه البيان الى (العمال والمستخدمين) وجاء بالاعلان مخاطبـــا العمال ، لقد خدعوكم وضحكوا عليكم ، الرأسماليين ، •• فلا تصدقوهم •• ، ولاترضوا باقتراحاتهم ، اذ لاغرض لهم من هذه الاقتراحات سوى ارجاعكم الى العبودية بالاجرة وانتم تطلبون الضريبة على الايراد ولا زيادة رواتبكم بل تطلبون مشاركة اصحاب الاعمال في اعمالهم • فاذا رفضوا هذا الطلب فان من حقوقكم الاستيلاء على المعامل والمزارع والمتاجر لانها ملك لكم بحكم الطبع وهو خير من حكم الشرع • فاستولـــوا عليها ولاتخـــافوا فان الجيش معكم •

وبعد ذلك يحرض انطون ، العمال ضد (الذين خانوهم ، اولئك الذين يسمون انفسهم علماء معتدلين ومادروا ان الاعتدال لايحصل حقا ضائعا) وطلب من العمال ، انكم في غنى عن خدمتهم اذا كانت على هذا المثال خدمتهم وخير لنا عدوانهم ••) ثم يوجه انطون ، نداء للعمال يدعوهم للاستيلاء على المصانع والثورة على المستغلين « ايها العمال •• نحن في غنى عن الجميـــع ، واعتمادنا على انفسنا طريقنا ، فلنتجمع على ابواب المصانع والمزارع والمتاجر لننافس اصحابها ، ونريهم قوتنا ونبلغهم نهائيا اننا نطلب الموت او مشـــاركتهم في ارباح اعمالهم[٥٦] •

وتحدث الثورة ، ويقف الجيشان ، جيش مدينة العمال المسلح بمبادئه الثورية وجيش مدينة اهل المال والمثقفين الانتهازيين وفوق هذا جيش مسلح ، فماذا يمكن ان تكون النتيجة ـ رغم ان حوالي خمسين جنديا انضم للثورة ـ غير الفشل التام ولا مخرج لانطون ، وهو يبحث عن خاتمة روايته وحلمـــه الجميل الثوري ، والثورة قد فشلت وانتكست ولهذا قرر ان يهدم الحلم وان يطوي صفحات الصراع بين المدن الثلاث • فقد استيقظ سليم صباح اليــوم التالي ليجد المدن الثلاث وقد اصابتها صواعق وزلازل وحرائق وســـيول وامطار وانتهت الرواية ولكن المعركة لم تنته •

(٥٦) ص ٨٢ •

ولم تكن رواية (الدين والعلم والمال) تترك اثرا قليلا على الحياة الثقافية في مصر • فقد الهمت هذه الرواية ، الشاعر مصطفى صادق الرافعي ليبدع ـ قصيدة طويلة يهاجم فيها (رأس المال) ويتوعد (النظام الرأسمالي) باكمله بثورة يقوم بها الفقراء[٥٧] •

يظن الاغنياء الفقر ضعفا ... وكم من حية تحت التراب
ولايخشون من جاعوا لديهم ... وليس اضر من جوع الذئاب
الم تكن السفينة من حديد ... فما للماء يخرقها بناب
اذا شمخت على الامواج أنفاً ... فما بعد العلو سوى انقلاب

وقد اثارت الرواية الكثير من الجدل والنقاش ، فقد سأل احد القراء انطون في سؤال وجهه الى الجامعة[٥٨] عن (المصادر التي استقى منها انطون ذلك الكتاب ، واجابه ان كتاب (الدين والعلم والمال) نتيجة مطالعات ثلاث سنوات في اهم الجرائد والمجلات الفرنسوية ، وناشد قارىء اخر ، انطون (بترك هذه المسائل الخطيرة وعدم تحريكها في فضاء الشرق لئلا يلتهب بها) ، واجابه انطون (اننا لانريد ان نضع حدا لحرية الفكر والنشر ••• والجامعة انما تكتب عن لذة في الكتابة ولا جزاء لها الان غير هذه اللذة ، فيوم يقال لها قيد قلمك قليلا فانها تفضل تركه على تقييده ، اذ لايبقى في حياة الكاتب من اللذة ما يساوي العناء •

وتساءل انطون ، كيف يجوز للكاتب (ان يشتغل بالصحو والمطروالنبات والحيوان والصين وتاريخ الامم الغابرة ويترك اهم شيء يجب عليه الاهتمام به لانه الصق الاشياء به وهو النظر في اعماق الاسس الاجتماعية لمحاربة الفساد الذي فيها واصلاح وتربية الاذواق وتكوين الضمائر الحية التي

(٥٧) انظر ، الجامعة ، السنة الرابعة ج ١٩٠٣/٥ ص ٢٩٧ •
(٥٨) المصدر نفسه ص ١٤٢ •

بدونها لا يكون الانسان انسانا ، فأن هذا افضل ما تحتاج اليه بلادنا الشرقية والاهتمام به مقدم على كل اهتمام •

وقد انتقد احد محرري الصحف العربية في البرازيل في رسالة للجامعة الرواية لان المؤلف لم يحكم بين الاحزاب الأربعة ، اهل المال واهل الدين واهل العلم ، بل حرقهم جميعا بنار وكبريت من السماء في ختام الرواية ، وقد علق فرح انطون ، قائلا « ولوم الكاتب في محله »[٥٩] •

ويبدو انها رواية لازالت تحتل اهميتها،حتى الوقت الحاضر،فبعد نصف قرن ، كتب ، الاديب اللبناني ، مارون عبود[٦٠] يقول « فرح انطون كاتب اشتراكي محموم حرارته دائما فوق الاربعين ، والميكروب اذا افتتح بلدا كان اقوى وافتك كان فرح من هذه المبادىء التي تشغل الدنيا في هم مقيم ، وتلك مزية المصلحين الذين يحملون البشرية على ظهورهم ، لان انطون ان تكون قصته معرضا لارائه الهدامة فنحا نحو قصصي اوربا الاجتماعيين الذين احبهم ، اما (الدين والعلم والمال) فليست قصة مبنية على الطراز الفني ولكنها قضية عظمى ألبسها فرح ثوب القصة فتنكرت فيه كما يتنكرون في السهرات ، يدور موضوعها حول الربين ، الدين والمال وليس فرح ممن يعبدون الاخير ولا ممن يتكلون على الاول اتكالا مثبتا للعقل شالا للفكر •

يتناول الكتاب الدين والسياسة بالبحث العميق والناس قسمان : واحد يهذر ويخرف في منطقه ، واخر يأبى ان يتعقل ، ففي كتاب الدين والعلم والمال اراد انطون اصلاح المدينة التي بناها (الشيخ سليمان) فلم يقدر فعمل بها عمل الله في سدوم وعمورة ، كما زعموا ، وبنى على انقاضها مدينة (الرفق والاخاء) •

(٥٩) الجامعة عدد ٩ و ١٠ السنة الرابعة ص ٣٦٩ •
(٦٠) مارون عبود ، جدد وقدماء ، دراسات ، ونقد ، ومناقشات بيروت ١٩٦٣ ، ص ٤٩ •

لقد كانت الرواية بمثابة منعطف خطير في فكر ، فرح انطون ، ففيها جدد موقفه صريحا وواضحا ضد رأس المال وانحاز للاشتراكية ونظامها السياسي ويمكن وزن اهمية افكاره الواردة في روايته ، انها جاءت في فترة كانت اقصى مالديها من شعارات الاستقلال الذاتي عن الدولة العثمانية واللامركزية والخلافة الاسلامية وغيرها ... اما انطون فدعا للاشتراكية كحل لمشاكل الامة التي تعاني الظلم والاضطهاد القومي في ظل الدولة العثمانية على أي حال ، ان رواية انطون ، قد اوضحت لنا التطور الجذري الذي وصل له انطون ، ولعل انحيازه كمثقف الى جانب العمال ونضالهم واضراباتهم ، وفي مثل تلك الفترة المبكرة من تاريخنا الحديث ، امر يعني الشيء الكثير ، فعندما اضرب ، عمال صناعة السكاير في ديسمبر عام ١٨٩٩ حتى ٢١ فبراير عام١٩٠٠ شن انطون حملة عنيفة على اصحاب الاعمال وعلى الحكومة وعلى النظام الرأسمالي كله .

واوضح فرح انطون «ان الحكومة في مصر ... والامة المصرية تساسان اليوم بذات المبدأ الذي تساس به انكلترا نفسها وهو مبدأ الاستنفراد ، فالقوي يقوى ويزداد قوة ، والضعيف يسقط ويزداد انحطاطا وسقوطا » .

ولجأ فرح انطون الى الشيخ محمد عبده يستفتيه في مدى التزام الدولة بضرورة التدخل في المنازعات بين العمال واصحاب الاعمال . ورد الشيخ محمد عبده بفتوى بالغة الاهمية وبالغة الدلالة في آن واحد فقد ادانت فتواه اسلوب الاستغلال الرأسمالي ادانة صريحة(٦١) .

وحيا فرح انطون ، يوم ١-١-١٩٠٠ ، اليوم الاول من القرن العشرين .... فوداعا أيها القرن الراحل وسلاما ايها القرن القادم ... لنر هذا القرن على لهيب الثورة الفرنسية ، ومدافع نابليون يدوي صداها في الجهات الاربع.

(٦١) انظر : نص الفتوى ، محمد عمارة ، الاعمال الكاملة للامام محمد عبده ، ج ١ ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٦٧٣ .

ولقد كان من تأثير هذه الثورة انها وضعت اساس الحرية في العالم على أسس ثابتة لاتزعزع ، وفتحت عيون الامم في الشرق والغرب فكأن تلك الشعلة التي احرقت فرنسا حينا من الزمان قد اثارت الدنيا بأسرها ... » ولكن انطون لايكتفي بالثورة البرجوازية .. « ولا ريب ان عمل القرن التاسع عشر من هذا القبيل ناقص نقصا عظيما ولكن هذا القرن عمل كل ما كان يستطيع عمله . واذا لم يكن له من فضل غير المناداة بالحرية والمساواة للافراد والشعوب لكفاه ذلك فضلا على القرون الخالية ، ولكنه لم يناد بذلك فقط بل يعطي الافراد والشعوب قوة توصلهم الى اغراضهم اذا راعوا النواميس الطبيعية وايقنوها ، بلا افراط ولا تفريط .

فالطريق يجب ان يمتد نحو الاشتراكية ، (لذلك انه من اعمال القرن ١٩ الاجماعية استفحال امر الاشتراكيين استفحالا نفع المبادىء الديمقراطية وافاد ضعفاء الامم ، افادة تذكر لهم بالشكر من هذا الوجه . وتفصيل يطول ايراده فنكتفي بهذا البيان الوجيز ، فأملنا الان موضوع فيك يا ايها القرن العشرين . لتكن للانسانية خيرا من اخيك القرن التاسع عشر لاتسمح ان تحدث فيك ما حدث في اخيك من السيئات وكمل كل تلك الحسنات .. فسر بامان وسلام ايها القرن العشرين(٦٢) .

وعندما حدث كسوف الشمس في (١٣) تشرين الثاني عام ١٨٩٩ وما اثار من هواجس حول نهاية العالم ... ويكتب انطون مقالا بعنوان (متى ينتهي هذا العالم) .

« يسألون متى ينتهي هذا العالم ، فنحن نقول لهم متى ينتهي ، ينتهي حين يعدل الحكام ، ينتهي حين يعامل ولاة شعوبهم كما يعامل الاباء ابناءهم ينتهي متى تنفق الحكومات ما تدفعه الشعوب اليها من الضرائب

(٦٢) الجامعة ، ج ١٢ ، ١٩٠٠/١/١٢ مقال (القرن العشرين وماذا عمل القرن التاسع عشر ص ٤٥٧) .

والرسوم على الامور الضرورية من تعليم الشعوب وانقاذها من آفة الجهل الهائلة لاعمل البذخ والامور الكمالية . يومئذ ينتهي عالم الجهل والشقاء والفقر والرذائل والاوهام ويقوم عالم ثان تنيره شمس الفضيلة الباهرة والادب والعلم الصحيح .. والا فسواء موتنا وحياتنا في العالم الحاضر وسواء خرابه وعماره اذا بقي على ما هو عليه الان » .

وبعد ان يتحدث طويلا عن العالم الذي يحلم به .. يقول (هذه هي العوالم التي يحق ان يؤسف عليها اذا هلكت ، لا عالم فيه الجهل سائد، والحق خائف ، والفضيلة مهجورة ، والعلم تجارة ، والادب منبوذ ، والكبير صغير والصغير كبير ، فمتى ينتهي ايها الشرقيون هذا العالم[٦٣] .

ويبدو ا نزيادة انطون ، حتى في مجال حقوق الانسان ، فقد نشر النص الكامل لحقوق الانسان من الفرنسية تحت عنوان ذات دلالة ومعنى « حقوق الانسان لا يجوز ان يدوسها انسان [٦٤] . وانطون كان مدافعا عن المرأة وحقوقها ونشر في الجامعة تلخيصا لكتاب قاسم امين (المرأة الجديدة) مؤيدا دعوته [٦٥] .

علق انطون امالا كبيرة على الصحافة ودورها الرائد في الشرق والتي قال فيها « حسناء ولكنها عمياء توقد الشمع في قاعات عميان . وهذا الشمع غير سليم دائما ، بل كثيرا من يكون مغشوشا ينبعث فيه دخان يؤذي العيون ان لم يعمها ويتساءل فرح في مرارة « اية تربية تنقصنا الان... وماهي المبادىء العظيمة التي يجب ادخالها الى الشرق لتحي رفاته الرميم ، وما هي الكتب التي

(٦٣) انظر : الجامعة ، السنة الاولى ، ج ١٧ ١٥ نوفمبر ١٨٩٩ ص ٣٨٢ .
(٦٤) المصدر نفسه ، السنة الثالثة ، ج ٤ ١٩٠١ ص ٢٥٠ ..
(٦٥) المصدر نفسه السنة الثانية ج ١ ص ٦٢٦ .

تلزمنا في المدارس على وجه العموم وما الوسيلة لجعل الصحافة العربية اكثر نفعا واشد تأثيرا »[٦٦] .

وحاول انطون ان يجعل الصحافة اكثر نفعا واشد تأثيرا في (الشعب الساكت الجاهل المظلوم) الذي يعيش في (اسفل السلم الاجتماعي ولا يعرف موجود هو ام غير موجود) . وفي (احشائه الشقاء والعناء وجميع الرذائل التي يمكن نزولها بالانسان) .

وعمل انطون في عدة صحف مصرية ، فاصدر عام ١٨٩٩ مجلة (الجامعة) والتي دعا فيها كل شعوب الشرق التي تحكمها الدولة العثمانية .. للعمل المشترك ضد الغرب الاستعماري ، وكان يروج ايضا فوق صفحاتها علوم الغرب وكثيرا من مبادئهم الفلسفية . ثم اصدر لشقيقته روز زوجة المفكر نقولا حداد (مجلة السيدات) وفي نيويورك اصدروا (انطون ، روز ، نقولا حداد) مجلة (الجامعات) .

ولم يستطع انطون البقاء خارج وطنه بعد قيام ثورة الاتحاديين عام ١٩٠٨ وما ادت الى تطورات سياسية واقتصادية في الدولة العثمانية . فهزه الحدث من الاعماق واقتنع ان (الشرق يتحرك) وعاد الى مصر من جديد وفي طريقه مر بباريس حيث قابل (محمد فريد رئيس الحزب الوطني واتفق معه على ان يشارك فور عودته في تحرير صحف الحزب . واشترك فعلا في تحرير (البلاغ المصري) و (اللواء) وغيرها . وفي هذه الفترة كان انطون يتأجج حماسا ووطنية ورغبة في النضال ضد الاستعمار والدفاع عن حقوق ومصالح الشعب . وكانت مقالات انطون في هذه الفترة من الشدة والعنف بحيث اشتهر بانه المتسبب بعنف مقالاته في اغلاق السلطة لعدد من الصحف منها صحيفة (مصر الفتاة) .

(٦٦) د . رفعت السعيد ، ثلاث لبنانيين ، ص ٨٧ .

فشارك بتحرير (الاهالي) و (المحروسة) و (مصر) و (الوطن) وغيرها وقد كتب مقالات ضد الاحتلال البريطاني لمصر كانت (كالصواعق)(٦٧) واغلقت (الاهالي) ستة اشهر • وصدرت (المحروسة) لتحل محلها ، ثم اغلقت (المحروسة) • وننقل الحوار التالي بين فرح انطون ونقولا حداد ، ليعرف القارىء نوعية فرح انطون •

حداد : من الافضل ان تخففوا الهجوم حتى تسلم (الاهالي) من عقاب الاقفال •

فرح : معنى هذا ان نرمي سلاحنا ونرفع العلم الابيض ونسلم انفسنا للخصوم•

حداد : ولكن ماذا تفعلون اذا عادت الحكومة واقفلت الاهالي ثانيا •

فرح : نحن محاربون ، فاقفال (الاهالي) افضل جدا من ان تحيد قيد شعرة عن خطتها ، والهلاك في الحرب افضل من التسليم •

حداد : ولكن ماذا تفعلون وهي مقفلة ؟

فرح : نفعل مايفعله الجيش اذا تحصن عدوه من جهة فنأتي اليه من جهة اخرى في الفنون الحربية مايسمونه (حركة التفاف) ونحن نلجأ الى (حركة التفاف)

حداد : كيـف ؟

فرح : نكتب كتبا وكراريس ونؤلف روايات تمثيلية عن سكان جزيرة واق واق والشعب ذكي يفهم(٦٧) •

وكانت الفترة التي اغلقت فيها ، صحف ، الحزب الوطني ، وهجـرة قادته ، وبين صـدور الاهـالي سـنوات قاتمه في حياة مصر السياسـية والاقتصادية والاجتماعية فرضت فيها الحماية البريطانية ، ونزلت قبضة الاحتلال بكل قسوتها لتسكت كل صوت معارض • وتحولت جريدة (اللواء) والتي يرأسها الوطني المصري مصطفى كامل (١٨٧٤–١٩٠٨) الى نقطة التقـاء

(٦٧) د . رفعت السعيد ، نقولا حداد ، القاهرة ١٩٧٢ ص ٥٩ •

للوطنيين الذين بدأوا في هذه المرحلة يناضلون من اجل هدفين اساسيين هما انهاء الاحتلال البريطاني واقامة نظام دستوري في البلاد •

ففي هذه الفترة انغمس انطون ، بشكل كامل في كتابة المسرحيات ،ولعل ما قاله لنقولا حداد ، نفعل ما يفعله الجيش اذا تحصن عدوه من جهة فيأتي اليه من جهة اخرى •• في الفنون الحربية مايسمونه حركة التفاف ونحن نلجأ الى حركة التفاف ، نكتب كتبا وكراريس ونؤلف روايات(٦٨) ويبدو لي ان الرجل اراد ان يرفع صوته في زمن مظلم ، كزمن الاحتلال البريطاني لمصر وتحتل رواية (الدين والعلم والمال)مكان الصدارة ، في قائمة رواياته التي فضحت النظام الرأسمالي ، ودعت لاقامة النظام الاشتراكي لمعالجة امراض المجتمع العربي ، وقد قدم الكثير من الروايات المترجمة عن الثورة الفرنسية واحداثها ، وهذه بحد ذاتها شيء بالغة القيمة • وحولت كثير من رواياته المؤلفة او المترجمة ، الى المسرح وقدمت على مسرح منيره المهدية (٦٩) وجورج ابيض(٧٠) •

وفي مجال القصة ، ابدع انطون روائع قصصية ، اهمها (اورشليم الجديدة او فتح العرب بيت المقدس والرجل المريض(٧١) وفيها كتب الاديب اللبناني مارون عبود(٧٢) يقول (اورشليم بعيدة القعر تغذي الفكر ، وتروح المخيلة ، وهي مؤسسة على صخور الوجدان في قاع البناء الانساني ، والحياة

(٦٨) المصدر نفسه ص ٥٩ •

(٦٩) من روايات فرح انطون التي مثلتها ، منيرة المهدية « كرمن ، كرمينا ، روزينا ، تابيس » • انظر مجلة افاق عربية ، عـدد ١٩٧٨/٣ ، مسرح منيرة المهدية ١٩١٥ – ١٩٢٠ •

(٧٠) اما الاستاذ جورج ابيض فقد مثل روايات البرج الهائل ، ابن الشعب ، الساحرة ، اوديب الملك ، المتصرف في العباد ، صلاح الدين . انظر مارون عبود ، جدد وقدماء ، بيروت ١٩٦٣ ص ٣١ •

(٧١) صدرت في الاسكندرية عام ١٩٠٤ •

(٧٢) الجامعة ، ج ١٨ ١٨٩٩ ص ٤١٢ •

الحقيقية اذا لم تكن فيها عجائب الف ليلة وليلة ففيها المسألة العظمى التي تشغل بال الردف كله ، (الدين) ، (وأسفاه ، عاد الغالب الى عادات المغلوب ، ان المادة قويت على الروح ... والمصالح على المبادىء والتقليد على الفكر والعقل ، فهاتوا لنا معولا للهدم مرة اخرى .. ويقدم انطون تصوره لاسباب تدهور الحكم البزنطي وانتصار الزحف الاسلامي في معركة بيت المقدس « ياسلطنة بيزنطة التي ملات الدنيا ابهة وسطوة وجلالا، استعدي فقد دنت اخرتك ولاتلومي احدا غير نفسك ، لماذا اهملت شعبك لتشتغلي بالمجالات العقيمة ؟ لماذا جهلت ان كل بناء لا يبنى على اصلاح احوال الشعب ، بناء ضعيف يتداعى في مدة قصيرة ؟ لماذا حصرت كل قواك في الاختلافات على خلاف الملك وانتقال السلطة ... ؟ لماذا هجرت الروح والفكر الذي يجعل الافراد اقوياء والشعوب منيعي الجانب .

ان قصص ، فرح انطون ، وخصوصا (رائعة اورشليم) غنية جدا بالافكار ولكنها افكار كرستها المطالعة ، واعجابه بكل جديد ، رأى فقر الادب العربي في زمانه فكان كمن دخل مخزنا كثيرة اصنافه وانواعه فتحير ، لذلك جاءت قصصه معرضا (امميا) فكل المسائل التي دوخت رأسه : كأنحطاط الشعوب في الدين والاخلاق والسياسة اثارها في (اورشليم) ـ واورشليم سبب كل عله .

وانطون في قصصه مبتلي بحمى رومانتيكية اوقدت نارها الفروق الاجتماعية السائدة في مصر ، وقتئذ ، ولهذا في قصصه يقف امام القضايا الاجتماعية وتأخذه نوبة الوعظ ولكنه وعظ حار غير مملول ، ولا عجب ففرح قصصي يعالج المسائل الاجتماعية العظمى في اورشليم وفي رواية الدين والعلم والمال ، ومريم قبل التوبة ، والوحش الوحش الوحش . ونالت مسرحيات انطوان ، خصوصا البعض منها ، هجوما لاذعا واتهمه البعض بانه ينظر الى هذه الروايات (نظرة تجارية) ولايبالي بالفن والادب الحقيقي ، بل لم يبال

بشهرته العلمية التي كسبها وانه كان يجاري ضرورات المسرح ، مسرح منيرة المهدية والوسط المحيط بها والمولعين فيها .

وقد دعا انطون الى نشر التعليم والزاميته ، ويعتقد انطون ان نشر التعليم هي معركة بذاتها او انه بداية معركة اخطر ، انها تجلو النفس من غياهب الجهل ، وتعلمها الفضيلة. وتحت عنوان (اقتراح الى العلماء) كتب انطون، مقالة ، يشرح اوضاع الشعب العربي في ظل الدولة العثمانية قائلا (الشعب في الشرق ساكت جاهل مظلوم ، يعيش في اسفل السلم الاجتماعي لايعرف موجود هو ام غير موجود ، وفي احشائه الشقاء والعناء وجميع الرذائل التي يمكن نزولها بالانسان . يقابله طبقة الاغنياء والمشغولين بملاذهم ومصالحهم عن شغل ادبي ووطني ولايهمهم عاش الناس ام ماتوا ما دامت صناديقهم ممتلئة وبطونهم متخمة . وبين هاتين الطبقتين طبقة متوسطة تعاني جهاد الحياة وتكاد تسقط في هذا الجهاد لتشبهها بالطبقة التي فوقها .

ويتساءل انطون ، ماهو الطريق اذن ، ماالعمل ، في هذه الفوضى الادبية والاجتماعية السائدة ، ويلتفت الى الحكومة المصرية فيجدها ، (مقيدة اليدين بقيد داخلي هو قيد الاحتلال وقيد خارجي هو قيد المعاهدات الاوربية) ويتساءل بمرارة ، اية تربية تنقصنا الان ، وما هي الكتب التي تلزمنا في المدارس ، وما هي الوسيلة لجعل الصحافة العربية اكثر نفعا واشد تأثيرا وما هي المبادىء العظيمة التي يجب ادخالها الى الشرق لتحيي رفاته الرميمة ويدعو انطون الى محاربة الاستبداد والاستعباد وتأيد الحرية بالقوة والاستعداد للجهاد .

يعتبر فرح انطون ، أحد المثقفين الشوام القلائل ، الذين انتموا سياسيا الى حزب الوفد ، واسهم اسهاما نشيطا في الدعوة له ، الا انه ، ان بدت في تصرفات (سعد زغلول) استعدادات للتفاوض مع الانكليز حتى غير ، فرح ،

موقفه من سعد ونشر سلسلة مقالات في جريدة الاهالي تنتقد سياسة سعد انتقادا شديدا .

ويبدو ان فرح انطون ، كان رائدا في مجال اخر ، مجال محاربة الاستعمار والحروب الاستعمارية ، ففي خلال حرب البوير في افريقيا كتب انطون ، مقالا عنيفا ضد الاستعمار البريطاني تحت عنوان (الترانسفال ظالمة ام مظلومة)[٧٣]

وفرح انطون ، الواعي سياسيا يعرف داء مجتمعه ، ويعرف من اين يأتي الظلم وما هي بواعثه السياسية واسبابه ، ويدعو الى التنظيم والعمل الجماعي المنظم ، واقامة جمعيات صناعية وزراعية وتجارية .

وانطون من المفكرين القلائل الذين يرون (بالاشتراكية) الحل الامثل لعلاج الفساد الاجتماعي النامي في الشرق العربي ويرى انطون ان هذه الحركة (الاشتراكية) اخذه في الامتداد والانتشار، ويدعو أنصارها الى تنفيذها بالقوة والا بقيت نظرية الى ماشاء الله . ويلاحظ ان انطون يستخدم عبارة (الاشتراكية الانجيلية) مؤكدا انها مبتغاه الاخير ، ان تستر ، فرح انطون وراء كلمة (انجيلية) له مايبرره وذلك للظروف السياسية والاجتماعية المحافظة السائدة وقتئذ .

ان افكار انطون الثورية والجريئة قد القيت في مجتمع قائم على اساس الايمان بالاديان المنزلة ولهذا ادت الى نتائج ثورية ، ولهذا كانت كتبه ، ابن رشد ، رواية الدين والعلم والمال ، اشبه (بالنشرة السياسية) بالرغم من شدة طابعها النظري ، فان هدفها يتوخى وضع اسس دولة علمانية في الشرق العربي . ان جرأة افكار انطون اثارت حنق سلطات الاحتلال البريطاني التي اناخت بكلكلها على البلاد . وقد اتهمته هذه السلطات بالتهور في كتاباته بشأن الحركة الوطنية وهددته بالنفي من البلاد ونصحته بالاعتدال ، ولكن ، فرح،

(٧٣) حول هذا المقال انظر الجامعة ج ١٧ ١٨٩٩ ص ٣٧٤ . مقتبس من د . رفعت السعيد ، المصدر السابق ، ص ١٣٨ .

بقوله ، لست احترف القلم لكي استرزق منه قط ، فاذا لم يؤذن لي ان اكتب مايوحي الي به ضميري فاطلب الرزق من حرفة اخرى غير القلم[٧٤] .

وينتقل فرح انطون مرحلة اعلى من تطوره الفكري . فهو احد المثقفين العرب القلائل الذين اطلعوا على مؤلفات ومقالات واخبار ثورة البلاشفة في روسيا ، وكان يؤيد الحركة ، كتجربة جديدة ، ويرى اذا فشلت هذه الحركة ، فانها تضر الحركة الاشتراكية امدا مديدا[٧٥] .

من الخطل الظن ، ان افكار فرح انطون ، هي مجرد (صدى لمعلميه الاوربيين ، كما اوضح البرت حوراني)[٧٦] ، الا ان هناك حقيقة معلومة ، وهي ان افكار انطون واراءه ، قد نضجت وتكاملت في ظل الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في مصر التي تمتعت بظل حريات نسبية كما ان خلفيته الثقافية والفكرية نضجت بفعل عوامل عديدة ، منها ، اطلاعه على ثقافات عدة وبلغات مختلفة ، مما ادى الى تكامل وعيه السياسي . على أي حال ، ما توفر لدينا من افكار واراء لفرح انطون ، توضح بجلاء انها (صدى) لثقافات مختلفة بعامة ، والثقافة والتراث العربي بخاصة والا ماذا يعني اهتمامه بابن رشد وفلسفته المادية ؟ وابتهاره في شجاعته وفيه كتب (ابن رشد يدخل بجرأة الاسد الى كهف الحقيقة المحجبة ولا يبالي) كما انه ، قرأ ، بالاضافة الى ابن رشد ، لابن طفيل ، الغزالي ، عمر الخيام وفلاسفة الاسكندرية . ويلاحظ ان انطون يستشهد كثيرا باقوال ، محيي الدين بن عربي ، ويتابع باعجاب بالغ خطى ابن العلاء المعري ويقدمه الى قرائه اكثر من مرة كواحد من اكثر فلاسفة الفكر العربي عبقرية وتحررا . وبعد ان قرأ انطون كتاب الغزالي (تهافت الفلاسفة) يعلق عليه ، بانه المرجع الاعلى لجميع الذين يرومون نقض

(٧٤) د . السعيد ، المصدر نفسه ، ص ٨٦ .
(٧٥) المصدر نفسه (ص ١٤٨) .
(٧٦) الفكر العربي في عصر النهضة ، ص ٣٠٩ .

الفلسفة[٧٧] وبعد هذا ، الا يعني ، ان انطون خريج لكل ما هو ايجابي وتقدمي في تراث الامة وتاريخها .

واخيرا تتسائل مع فرح انطون متى عمل جميع البشر بفضل اديانهم باخلاص وتركوا مابقى، فقد صارت الاديان كلها دينا واحدا وهو (دين الفضيلة) فمتى ترى الارض ذلك الزمن السعيد ؟ متى يصير البشر اخوة يجمعهم روح الدين ؟ واخيرا متى يصل الناس الى زمن يقرأون فيه كتابنا (كتاب ابن رشد) بضجر وملالة ، لانه بمثابة تاريخ قديم لم يبق في الارض احتياج لموضوعه ؟ ويسأل فرح : في اية سنة من السنين المقبلة يقرأ المسلم او المسيحي في الشرق هذا الكتاب في المستقبل وهو يضحك من اشتغال ابناء هذا العصر (عصر انطون) بامور صغيرة كهذه الامور ؟ هل ذلك في مائة سنة ؟ ام الف ؟ ام الفين؟ ام ثلاثة، ام عشرة ، ام يقضي — واحرباه — على الانسانية في الارض بحادث طبيعي دون ان يصل الى ذلك الزمن السعيد . ولكن انطون لم ييأس ويقول ، ليس لنا الان امل ، الا فيك ايها العلم المقدس والفلسفة المقدسة ولا رجاء الا فيك ياطبيعة الانسانية[٧٨] .

ان افكار فرح انطون ونضاله نموذج ممتاز لنضال الفئة المثقفة العربية في ظل الدولة العثمانية . لقد كان محقا من وصف افكار انطون ، كانت جديرة ان تكتب بماء الذهب[٧٩] في تاريخ العرب الحديث وان (اثرها) على الشعب العربي (شبيه بذلك الاثر الذي يتركه دين جديد في قلب جديد الايمان[٨٠] .

---

(٧٧) فرح انطون ، ابن رشد وفلسفته ص ٩٩ .

(٧٨) المصدر نفسه ص ٢١٧ .

(٧٩) لطفي جمعة ، من خطابه في تأبين فرح انطون ، السعيد ص ٧٦ .

(٨٠) القول ، لسلامة موسى ، السعيد : ص ٧٦ .

الفصل الرابع

شبلي شميل

سياسيا ومفكرا ومصلحا اجتماعيا

ملاحظات وتأملات

كثير اولئك الذين يدخلون في عداد الرواد الاوائل ممن تحدوا الجمود البالي وتمسكوا بخير ما في الماضي من فضائل ليضعوا بذلك اللبنات الاولى للفكر العربي المتحرر الحديث . ومع انهم لم يجتازوا الدرب الشائك دون ارتكاب الخطأ والوقوع في الزلل ، الا ان ما قدموا من جليل الخدمات وما اجتهدوا في سبيل اللحاق بالركب يجعلهم على رأس قائمة من يستحقون الاهتمام من لدن باحثينا علهم يلقون بذلك اضواء جديدة على الجذور الاصيلة للاتجاهات الفكرية العربية الثورية المعاصرة .

لايمكن فصل الافكار التي نادى بها المثقفون الثوريون العرب الاوائل الذين تحولت مصر الى مركز نشاطهم عن خصائص المرحلة التي عاشوها وعن التطورات الاجتماعية والاقتصادية التي بدأ القطر المصري يشهدها منذ ان بدأ اندماجه بالسوق الرأسمالية العالمية ومنذ ان اخذ احتكاكه الثقافي باوربا يزداد بوتائر سريعة فاقت ما حدث في معظم اقطار الشرق الاوسط الاخرى . وقد تمخضت من هذه التحولات والتغيرات ظهور فئات اجتماعية جديدة رافقها ميلاد تناقض حتمي بين القديم السائد والجديد النامي . ويكمن في ذلك التفسير الاول لطبيعة توجهات المثقفين الثوريين الفكرية التي حاولت اكتساح تراكمات سلبية بأساليب لم يكن بوسعها التجرد من التناقض والغموض .

شهدت المنطقة في نفس المرحلة تحولات مهمة لم يكن في الامكان حصر اشعاعاتها في اطر محلية ضيقة ، فاذا بالافكار الجديدة تجد سبيلها الى مناطق معينة فى الامبراطورية العثمانية وغيرها ، واذا بروسيا القيصرية تجرع مرارتيز

(*) نشر البحث في مجلة (قضايا عربية) بيروت عام ١٩٧٨ : عدد ا ب/ص٧١ .

في عام واحد (١٩٠٥) - اندحار جيوشها الجرارة امام اليابان - البلد الاسيوي النامي ، وانفجار ثورة كادت تقصف بعروش اعتى الطغاة ، اذا بالثورة الدستورية في ايران تستمر بين مد وجزر على مدى سنوات (١٩٠٥ - ١٩١١) ، واذا بالشعب الهندي - يحاول بجرأة رائعة تجريد التاج البريطاني من اثمن درة فيه واذا باصوات الثورة المدوية تتعدى سور الصين الصامد امام الغزاة وكأنه لم يكن ، واخيرا اذا بالثوار الاتحاديين يضعون فاتحة لعهد السلطان الدموي عبدالحميد الثاني الذي كان خلعه بمثابة خيال قلما راود فكر غير الاتحاديين على مدى ثلاثين عاما ونيف .

ان هذين العاملين ، الداخلي - الاساس والخارجي - المساعد جعلا من امر ميلاد افكار جديدة في المجتمع المصري منذ اواخر القرن الماضي ولاسيما في بداية القرن العشرين ، بمثابة حتمية تاريخية وقد امتدت معالجات الافكار الجديدة لتشمل القضايا الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والسياسية ، وقد تجسدت بشكل خاص في ظهور بوادر غير متبلورة للفكر الاشتراكي الديمقراطي والعلمي الاوربي . ففي بداية القرن العشرين اسس الدكتور محمد جمال الدين ، وهو خريج احد المعاهد الفرنسية[1] ، تنظيما اسماه بـ « الحزب الاشتراكي المبارك » واصدر سلامة موسى المفكر المعروف المتأثر بالفكر الفابي الانكليزي وبشخص بيرناردشو اصدر في العام ١٩١٣ كراسا يحمل عنوان « الاشتراكية » [2] .

وبعده بعامين نشر مصطفى المنصوري كتابا مستقلا عن « تاريخ

(١) انظر ، كامل ابو جابر ، جذور الاشتراكية ، سلامة موسى ونقولا حداد ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ١٧ .
(٢) سلامة موسى ، الاشتراكية ، المطبعة المصرية الاهلية ، القاهرة ١٩١٣ .

كلية الاداب - جامعة بغداد .

الاتجاهات الاشتراكية » تطرق فيه باسلوب جديد لمواضيع بدأت تفرض نفسها على الوسط الثقافي المصري بشكل خاص من قبيل ، رأس المال والاستقلال الناجز وفائض القيمة والاستغلال والتناقض الطبقي والملكية والاستعمار والحرب ، كما تعرض الى نشاطات الاشتراكيين الفرنسيين والانكليز والالمان ووضع برنامجا اصلاحيا اشتراكيا لبلاده .

من بين هؤلاء تألق اسم الدكتور شبلي شميل بشكل خاص وذلك لقوة تعبيره ودقة ملاحظاته النابعة من ثقافته العالية وسعة افقه . فقلما يوجد حقل لم يطرقه بنجاح وبجرأة نادرة .

تخرج شميل من المعهد الطبي التابع للكلية البروتستانية السورية (الجامعة الامريكية ببيروت حاليا) عام ١٨٧١ ، وتابع دراسته في باريس فاتصل بملامح الفكر التقدمي الاوربي مباشرة ، ثم مارس المهنة في مصر[3] حيث اصبح على اتصال مباشر باحداث المجتمع اليومية مراقبا متغيرات الحياة والقوى المؤثرة فيها بفكر ثاقب .

عمل الدكتور شبلي شميل في مرحلة حساسة من تاريخ الامة ، واستهدف مخلصا في كل ما عمل وقال ، مصيبا أو مخطئا ، « ايقاظ الافكار من نومها العميق » لانه أمن بان « الحركة مهما كانت خير من السكون » بل اراد خلق « هزة تصل فينا الى اعماقنا » بعد ان « تقادم علينا السبات حتى بتنا في رتبة في صف الاحياء لاهي بالميتة فتدفن جثة هامدة ولا هي بالحية فتبعث بشرا سويا[4] . وهو كان يرى العمل والجد محكا اساسا لتقييم الانسان ، فان « اليوم - الذي ينصرف الانسان فيه من تنميق الكلام الى اتقان العمل هو اليوم الذي تقوم فيه طباعة فتقل سخافاته ويكثر جده ويقل رياؤه وينشط

(٣) الدكتور رفعت السعيد ، طلائع الفكر الاشتراكي في مصر ، ص ١٦ .
(٤) فقرات مقتبسة من مقدمة الدكتور شبلي شميل لكتاب « فلسفة النشوء والارتقاء » القاهرة ، ١٩١٠ ، الصفحات ، ب ، ج ، د ،

من الذل ويرتقي ارتقاء حقيقيا ويحق له حينئذ ان يعد نفسه انسانا »[٥] .

ان شميل في تأكيده على الجد في العمل لاينقل لنا خير مافي تراثنا فحسب بل يظهر ايضا كعلم بارز من اعلام النهضة العربية الحديثة تربطه وشائج كثيرة باعلام النهضة الاوربية ، فهو مثلهم تماما يعبر بصدق عن المهمات الجديدة والجليلة التي ظهرت امام المجتمع العربي في مرحلة انتقالية خطيرة فاذا بشميل وكأنه واحد من انسانيي عصر النهضة الاوربية ــ يحاول تخطي المفاهيم الاقطاعية البالية عن طريق ربطه لقيمة الفرد بما في ذاته لا في انتمائه[٦] فهو يسأل في مقالة له تحمل عنوانا معبرا « ساعة في الماضي » عن الانتماء بهذا الاسلوب الساخر « مللت الخروج ولو الى الحق وغلبتني عوامل الرجعة ولو انها رده الى الباطل فرأيت الناس يفخرون باجدادهم ولو انهم بهم بئس الاحفاد فتولتني السأمة من حقارة النسب ولو زانها كرم الحسب فقمت أبحث في كتب الحكماء لعلّي اهتدي الى شرف عظامي أضمه الى فخر عصامي فوجدت اني من سلالة الالهة يوم فتنوا باختلاط الناس فلذت باجدادي وزهوت بهم على كل مخلوق من أبي البشر الذين أبى وتكبر مقره النار وبئس المصير»[٧] ..

هناك خيوط كثيرة اخرى تربط كاتبنا باعلام النهضة . فاننا عندما نقرأ له « حكم كاذب » لنحس وكأننا امام صورة شكسبيرية مصغرة عن

---

(٥) استهل الدكتور شبلي شميل كتابه بمثل هذا العبارات المعبرة انظر الجزء الثاني من مجموعة شبلي شميل ، القاهرة ١٩٠٨ .

(٦) القصد الانتماء العائلي ، وهذا ماحدث في المجتمعات الاوربية ايضا ابان النهضة عندما حاول المفكرون تحطيم القيود التي تحول دون ابداع الفرد واخذ مكانه الطبيعي في المجتمع بسبب من القيم الاقطاعية السائدة يومذاك .

(٧) الجزء الثاني من مجموعة الدكتور شبلي شميل ، ص ٢٩٩ .

«تليمون الاثيني»[٨] . فقد كذب القضاة . وكذب الاطباء وصدق المال وبرأ المحلفون (ثو) ....[٩] .

كذب القضاة ... لانهم برؤوه ... بل لانهم فقدوا في حكمهم كل شجاعة فلم يصغوا الى صوت الضمير وحكم العقل ، وكذب الاطباء ... لا لنسبتهم الجريمه الى جنون طارىء عليه بل لاعتبارهم الجنون فيه ملازما .. (ثو) حتى لانه ليس في الشرائع ما يصونه من هذا العدوان ... والذين برؤوه كذبوا لانهم لم يجدوا فيها مخرجا اخر لنجاته . وان كانوا قد أظهروا كل هذا الاهتمام فالفضل للاصغر ذى الوجهين . فويل للفقير ، لان « اذا كان الغنى قوة فالفقر لاشك جناية » . واما وجود (ثو) في المستشفى ، فلا تضييق عليه لان ثروته تضمن له كل ما يتوق اليه من الراحة[١٠] .

ويجدر بنا ان نشير فى هذا المجال الى حقيقة اخرى هي ما يجمع شميل بارازمس ــ الروتردامي «امير علماء» النهضة[١١] من حيث الاسلوب السلس الساخر النافذ الى عقل القاريء وقلبه[١٢] فأن أرازمس الذي درس في اكثر من جامعة اوربية يصف الاساتذة في كتابه ذائع الصيت « في مديح السفاهة او الغباوة » بمثل هذا الاسلوب اللاذع فان الكل يعرف مقدار شقاء طائفة

---

(٨) من مسرحيات شكسبير المعروفة التي ينتقد فيها ضعف الانسان امام الجاه والمال .

(٩) اسم القاتل ثرى برأته المحكمة بحجة الجنون .

(١٠) الجزء الثاني من مجموعة الدكتور شبلى شميل ، ص ٣٠٨ــ٣٠٩

(١١) كان ارازمس من ابرز أعلام النهضة وأوسعهم أفقا ، وقد اعتبره المؤرخون الاوربيون (امير العلماء) تلك المرحلة الحساسة من تاريخ قارتهم : انظر
Renaissance and Reformation,
1300-1648 ‘ Edited, by G. R. Elton, London, P. 59.

(١٢) مع انه لا يستبعد ان الدكتور شبلي شميل كان مطلعا على مؤلفات ارازمس الا اننا لم نعثر على ما يشير الى ذلك . المهم انه ادرك مثله مهمات المرحلة وصاغها باسلوب قريب لاسلوبه المعروف .

الاساتذة وتعاستها ولولا ما تتحلى به من السفاهة لكانت مهنتهم لا تطاق ٠ان هؤلاء الاساتذة لا يستحقون اللعن خمس مرات كما جاء في الاليـاذه بـل يستحقون خمسمائة مرة على طراز تفكيرهـم ومدارسهـم النتنة ان لبعض هؤلاء قابلية عجيبة في اخافة الطلاب بلهجاتهم ونظراتهم وبعصبيتهم وتراهم يصولون ويجولون في الصفوف خائضين شتى المواضيع بتعصب اعمى وعلم قليل ٠ وهكذا يعلوهم الزهو بطغيانهم وسطوتهم التي تقف دونها سـطوة فرعون وطغيانه ٠ وكلما تصوروا انفسهم بانهم اناس متعلمون شعت السعادة في نفوسهم مستهزئين على كل علم لا علم بـه ٠٠٠ وان عثـر احدهـم على مخطوطة مثلا وتم له نشرها او نبش قبرا وعثر على حجارة منقوشة وتمكـن من حل رموزها فما عليك الان تفوض امرك للواحد القهار من كثرة الادعاءات والمبالغة باهمية ما توصل اليه ومن الزهو الذي يملاء نفسه فكأنه قد تم لـه فتح افريقيا او السيطرة على بابل (١٣) ٠

واذا بشبلي شميل اقـدر أطبـاء قطره في عصر النهضة العربية ليصف الاطباء يمثل هذا الاسلوب الارازمسي

وعلى ذكر الاطباء اقول ان هذه الطائفة ـ وقاك الله شرها ـ كثيرة النفع كثيرة الضرر اذ يتوقف عليها صحة الابدان وحياة النفوس فاصابة منهم قد تحيي وغلطة قد تودي وهم من هذه الجهة يتشابهون كثيرا مع القضاة والفرق بينهم كما قال بعضهم ان الاطبـاء يدفنون اغلاطهـم في الارض ـ والقضاة ينشرونها في الهواء (١٤) وهم لو اقتصروا على ما سنه ابوهم ابو الطب ابقراط حيث قال :

« على الطبيب ان يتوخى منفعة مريضة فان لى يستطيعها فليتجنب الاضرار

(١٣) مقتبس من : الدكتور عبد القادر احمد اليوسف ، ارازمس الروتردامي ٠ المثقف ، العدد ص ٦٤/٦٥ لعام ١٩٦٠ ٠

(١٤) اشارة الى دفن الميت وتعليق المشنوق ٠

به » لوجدوا لهم من انفسهم عاذرا ولما استحقوا كبير ملام ٠٠ ولكن الاطباء بشر كسائر الناس يختلفون نظيرهم في العقول والاخـلاق فهـذا يعتمد على البساطة فى طبه كما يكون بسيطا في لبسه ومعيشته وذلك على ذر الرماد في عيون المرضى كما يذره في عيون سائر الناس في سائر احوال معيشته فلكي يصف لك قدح ماء يستقطر البحر ويستمطر السحب ويستسيل الجمد ومنهم من ينظر الى مريضه شزراً ويجلس الى جانبه ويعيره ظهرا ٠٠٠ ومنهم ، وكنت اود ان لا اذكر ذلك ، من يقصد تكثير الربح ٠٠٠ (١٥)

وما دمنا بصدد الاسلوب فانه لا بد لنا ان نشير الى ان الدكتور شبلي شميل يعتبر في كتاباته نموذجا رائعا للجمع بين الشكل والمضمون فى توافق تام ٠ فانه لم يعط الجديد مضمونا وحسب بل اعطى ايضا شكلا جديدا في حد واضح في التعبير عما كان يدور بخلده من فكر ثائر على الواقع المتخلف فهو كان يجيد رماية السهام واصابة الاهداف بما يختار من الفاظ وما يعرض من نماذج ، وكان يعرف كيف يجمع بين الهزل والجد دون ان يتخلى عن الاخير فى كلمة القاها او في مقالة نشرها ٠ ان شميل في كل ذلك يتميز بطراوة اسلوبه ودقة تعبيره وقوة اختياره للنماذج دليلا لما يقول وبرهانا على ما يعرض وها هنا نعرض هذا المثل الدال والطريف الذي اورده في بحثه الجدي عن رجال الغد دون ان ينال به من مستوى ماراد ، بل محققا الهدف بعقل عبقري متفتح يصبو الكمال في كل شيء ٠ فاسمع مثاله الحي الطريق عن الاساليب التربوية الخاطئة التي كانت تسود العقول ايامه ٠ يقول شميل (١٦) « واي قساوة وحشية تفوق ما أرويه لك عن معاملة المعلمين للتلامذة في بعض المدارس الكبرى ٠ فاني يوم كنت تلميذا وسني بين ١١ و١٢ سنة كان ملاحظ غرفة منامنا كلما رأى تلميذ مكشوفا وهو نائم يوقظه بضربه بعصا رفيعة على رجليه عوضا عن

(١٥) الجزء الثاني من مجموعة الدكتور شـبلي شـميل ، ص ٢١٠ـ٢١١ ٠

(١٦) المرجع نفسه ، ص ١٧٥ ٠

ان يغطيه كما كان يفعل ابوه او امه مع ان عمل الضرب لا يوجب على حضرته
صرف قوة اقل مما يوجب عمل التغطية • فماذا يفعل الطفل المسكين القاصر
عن معرفة الجائز وغير الجائز وعن معرفة متى يكون مسئولا ومتى لا يكون
اذا يرى هذا الوحش المتولي امر تربيته يفعل ذلك سوى ان يقوم فى اعتقاده
ان تكشفه في نومه ذنب لا يغتفر ولكنه ذنب ليس في طاقته ان يجتنبه فتقل
ثقته بنفسه ويقع في رعب قد يؤدي به الى الخمول • واذكر اني كي اتقي هذه
المعاملة الوحشية عمدت الى اللحاف وثبته في السرير ثم فتقت ملحفته وصرت
ادخل جسمي بين اللحاف والملحفة كانني في كيس ولكني كنت حينئذ كالمستجير
من الرمضاء بالنار فقد اتقيت بهذه الحيلة عصا الرقيب ولكن وقعت بين انياب
البق لانه مسامير اللحاف كما يسمونها كانت ملأنه بقا » •

والدكتور شبلي شميل يعتبر بحق رائدا من رواد التربية الحديثة في الوطن
العربي • فقد اولى هذه القضية الحيوية جانبا كبيرا من اهتمامه وكرس لها
العديد من مقالاته • وهو في ذلك ، كما في غيره من الامور أصيل في تفكيره ،
واقعي في تقيمه ، فيضع من المقترحات والمعالجات ما كان جديدا في بابه قلما
راود فكر غيره[١٧] • فاراد من المعلمين ان يكونوا « من الذين تربوا جيدا
وبرعوا في علم الاخلاق حتى يدرسوا طبائع كل تلميذ ويعاملوه بحسب طبيعته
وينبغي ان يكونوا كذلك من النبهاء ليلاحظوا ميل كل تلميذ وقابليته العقلية
ايردعوه عن الفاسد وينشطوه فى الاستعداد الحسي ، والاكثرون لايفهمون
مقدار الضرر الناشىء عن عدم مراعاة ذلك فان عقولا كثيرة من اذكى العقول
ينطفي نورها كل سنة في المدارس من سوء المعاملة ومقاومة اميال العقل[١٨] •

وبما ان معظم « المدارس تشبه السجون » و (التربية ناقصة كذلك
واكثر القائمين بها اناس ــ يجهلونها فيعدون العقاب ومعاملة التلاميذ بالخشونة

(١٧) المرجع نفسه ، ص١٤٠-١٤٣ ، ١٧٥ ، ١٨٩،١٩٦،٢٣٠،١٦١، ١٧٣ وغيرها •
(١٨) المرجع نفسه ص ١٧٥ •

والقساوة من القواعد الاساسية) فان مفكرنا يرنو الى ان يصبح مديرا للتربية
حتى يكثر التردد على المدارس لافي الحفلات الرسمية للاكل والشراب والطرب
على نغم الموسيقى واستماع خطب المديح الباردة ومبادلة العبارات الفارغة بل
للوقوف على احوال التلامذة في ادق امورهم في حياتهم واهوائهم وغذائهم
ونظافتهم ومطبخهم واسرتهم وملابسهم فضلا عن طريقة تعليمهم بل للوقوف على
حال المعلمين من ذلك ايضا • فاني اذكر ان معلما من معلمي المدارس الكبرى
حضر مرة للتداوي عندي فلما كشف لباسه الاسود كدت اتقيأ ما في معدتي من
شدة سواد قميصه لشدة قذارته فكيف يرجى ممن هو بهذه القذارة في جسمه ان
يكون انظف من ذلك فى عقله وان يكون مرشدا لهؤلاء الاطفال الى مايصح به
جسمهم ويذكو عقلهم وتسمو ادابهم[١٩] • وانا يجب ان نزن هذا الكلام
المخلص الذي قلما نجد اليوم من يتمسك بحذافيره او يهتدي بكل مافيه بميزان
قرن مضى[٢٠] • ولكن ليس بشيء غريب على شخص مثل الدكتور شبلي
شميل ان يولي مسألة التربية كل هذا الاهتمام ويضع لها ضوابط ومقاييس تعتبر
لوقتها ثورة في التوجيه العلمي ، فهو عرف ان ، مستقبل الامة على التربية
الصحيحة لاطفالها الذين هم انتاج الماضي وعنوان المستقبل الذي يعتمد على
صحتهم وتربيتهم وتعليمهم من يوم يحبل بهم اجنة الى يوم ـ يولدون ويربون
في حجر امهم الى يوم يخرجون في المدارس وينضمون الى الهيئة الاجتماعية
اعضاء عاملين[٢١] •

ويمكن القول ان شميل كان رائدا من رواد نشر التعليم الالزامي فى الوطن
العربي فقد طالب بان (تنشأ كتاتيب في كل مدينة وفي كل حي وفي كل قرية
على نسبة السكان يعلم فيها الاطفال مبادىء العلوم الطبيعية البسيطة يفهمون

(١٩) المرجع نفسه ص ١٧٤ ، ١٧٦ ـ ١٧٧ •
(٢٠) نشر اصل المقال في جريدة (البصير) القاهرية سنة ١٨٩٨ •
(٢١) الجزء الثاني من مجموعة الشميل ص ١٧٢ •

منها طبائع الماء والهواء والجماد والنبات والحيوان ويوضح لهم شبه تعليم طبيعي يعلمون منه حقيقة الانسان ومركزه في الارض »(٢٢) .

جلبت مشاكل اجتماعيـة كثيرة انظار الدكتور شبلي شـميل فتصدي لمعالجتها ووضع المقترحات العلمية لها . فهو وان بالغ في تضخيم سلبيات القضاء وفي التقليل من دوره (٢٣) ، الا انه وضع اليد ايضا على العديد من النواقص والعيوب الكبيرة التي كانت تعاني منها هذه المؤسسة الخطيرة التي ارادها ان تتحول الى ، ادارة فعالة للعمران ، وقد تسأل شميل عن حق :

« وما قولك في نظام المحاكم عموما ، كما هي فكأن واضعها ظن ان الانسان ما خلق الا لكي يقضي كله في دعوى تعرض له في حياته كأنه ليس له شغل اخر ، وما هي النتيجة ؟ ان الدعوى الواحدة تؤجل من شهر الى شهر اخر ومن سنة الى اخرى حتى ينقضي عمر صاحبها فيها وربما تركها ميراثا وحيدا لاولاده ، وبئس الميراث تصرف فيه قوى الانسان الى جهة واحدة .. (٢٤) لذا فانه دعى الى اصلاح القضاء عن طريق تبسيطه وتعميمه »(٢٥) .

وفي جميع معالجاته للقضاء والمحاكم يثير شميل الوضع المزري للسجون ومعاناة السجناء منه فمن « ينكر بأن السجون على حالتها الحاضرة هي منشأ الجرائم والرذائل وكل الشرور التي تتأصل في الهيئة الاجتماعية ، فلا شك انه من القحة على جانب عظيم » . بينما هو اراد من السجون ان « تتحول الى مدارس تعلم فيها الصناعات وتهذب فيها الاخلاق وتتحول فيها قوى المجرمين الى منافع

(٢٢) المرجع نفسه ص ١٨٩ .

(٢٣) راجع على سبيل المثال اقواله الواردة في مقالته (القضاء على القضـاء) المنشورة في جريدة «البصير» القاهرية سنة ١٨٩٨ (المرجع نفسه ، ص ١١٧ ـ ١٢٥) .

(٢٤) المرجع نفسه ، ص ١٨٥ ـ ١٨٦ .

(٢٥) المرجع نفسه ، ص ١٨٥ ـ ١٨٦ .

والى مستشفيات يعالج فيها مرضى الاجتماع كما يعالج فيها مرض الاجسام ، مدارس ومستشفيات بالغة الغاية القصوى من الاتقان ... (٢٦) » .

عالج شبلي شميل قضايا اجتماعية اخرى كثيرة كوضع المرأة في المجتمع(٢٧) وقضايا التطور والعمران بشكل عام ومسألة الانتحار ففي مسألة الانتحار ذكر مثلا ، انه « مرض من امراض المجتمع الانساني بأسبابه ونتائجه فهو ينزع من هذا المجتمع اعضاءهم غالبا في مقتبل العمر الموجود مهما يكن خير لهذا المجتمع من المفقود خصوصا اذا عرف المجتمع بشرائعه ان يستفيد من قوى هذا الوجود النافعة لان الاضرار بهذا المجتمع ليس من اصل الطبع في نظام هذا الكون بل من الامور العارضة بالنسبة الى تطبيق الوضع على الطبع . فالانتـحار مرض عارض لعدم تطبيق الموضوع على المطبوع واسبابه في نظامات هذا الاجـتماع وتعاليمه(٢٨) وهو نفس الرأي الذي يتفق حوله المفكرون المنتمون الى مدارس مختلفة .

بالرغم من كل هذه المعالجات الثقافية والاجتماعية المهمة فان الدكتـور شبلي شميل معروف في الوسط الثقافي العربي والاجنبي (دارويني) و « اشتراكي » اكثر من اي شيء اخر . وفي اعتقادي ان بروز شبلي شميل في هذين المجالين لايعود الى اهمية النظريتين فحسب بل يعود اكثر من ذلك الى الضجـة الكبيرة التي اثارها حوله المخالفون لارائه بصددهما . وفي الواقع ان شـميل كان داروينيا اكثر من داروين ، فتطرف في عرضه لمسائل النشوء والارتقاء وبناء العديد من افكاره ومنطلقاته الاجتماعيـة على هديها ، ان ذلك يعني حقيقة ، ان شبلي شميل كان اول مثقف عربي استطاع نقـل اصعب المسائل الداروينية الى اللغة العربية باسلوب موفق واليـه يعود الفضل بادخال مصطلح

(٢٦) ايضا ، ص ١٨٥ و ٣١٥ .

(٢٧) سنعود لهذا الموضوع فيما بعد .

(٢٨) الجزء الثاني من مجموعة الدكتـور شـبلي شـميل ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

« فلسفة النشوء والارتقاء » في لغة الضاد [٢٩] مما يزيد ، دون شك من شأنه العلمـي .

اما فى مجال الفكر الاشتراكي فان شـميل يعتبر بحق واحـدا من رواده الاوائل النشطين لاعلى صعيد الوطن العربي بل وكذلك لكل اقطار الشرق الاوسط فقلما يوجد بين الرواد من عالج المسائل الاشتراكية بعمق ووضوح الدكتـور شبلي شميل، والاهم من ذلك ان العديد من ارائه اصيلة نابعة من فكره الثاقب ومراقبته لاوضاع الفئات الاجتماعية العربية المسحوقة . فهو ليس مجرد مقتبس لما رأى في الغرب وما قرأ من نتاجاته بل انه يعطي الجديد بتعابيره الخاصة لمعالجة قضايا مجتمعه المعاصرة . وفي ذلك اهمية الاصالة بغض النظر عن الاصابة . فهو يقول بهذا الصدد مثلا ان « الاشتراكية او كما يسميها الاجتماعية » قلما نظر الكتاب فيها حتى زعماؤها انفسهم من الوجه الوحيد الذي يجب ان ينظر اليها ولهذا اكثرت الاراء فيها وكثر الاختلاف بينهم وكثر انتقادها ايضا . لان الجميع نظروا فيها الى المسائل الفرعية ولم ينظروا الى الاصول التي يجب ان تقام إليها الفروع .. [٣٠] .

وتبدو استقلالية شميل اوضح في قول ورد فى مقالة ذكر فيها : اني « لم اقبل ان انتظم في جمعية مشروعة انتظاما قانونيا ولو انضممت الى مبدأها وكنت

(٢٩) نشر الدكتور شبلي شميل في العـام ١٨٨٤ مجمـوعة مقـالات في مذهب داروين عن اصل الانواع وتحولها تحت اسم «شرح بخنـر مذهب داروين» . وفي العام التالي نشر كتاب « الحقيقـة » ويحتوي على مباحث لتأييد هذا المذهب . كما نشر في مجلة « المقتطف » سلسلة مقالات عالجت الموضوع وفي العام ١٩١٠ نشـرت « المقتطف » كتابا مستقلا تحت عنوان « فلسفة النشوء والارتقـاء » وهـو الجـزء الاول من مجموعة شميل ويقع في (٣٦٧) صفحة .

(٣٠) الجزء الثاني من مجموعة الدكتور شميل ، ص ١٨٣ .

في طليعة الذائدين عنه لاني اريد ان تبقى لي حرية القول والعمل للبلوغ اليـه غير مقيد فيه بنظام أو زمان » ...[٣١] .

والمهم ان نشير هنا ايضا الى ان شبلي شميل لم يتردد ، رغم قوة تعبيره وسلامة لغته ، فى تبسيط عرضـه لامور خصت الاشتراكيـة فكـرا وتطبيقا ولا يستبعد انه توخى من ذلك مخاطبة بسطاء الناس ، فهو يقول في مقال له يحمل الاشتراكية[٣٢] ما نصه : ما قولك في نظام اجتماعي يهتم بشؤون الافراد وينشيء ادارات تهتم بوجود اعمال لكل العمال كل حسب طاقتـه ــ وهـذا ليس من الاحلام ــ ويقيم المستشفيات على نسبة السكان ويوفر وجود الماء للجميـع على حد سواء ويقدم الصابون والكساء الاول البسيط لكل معوز (لان المرسر لا يتقبل ذلك) تيسيراً للنظافة التي هي أول دعـائم الصحة . فهـل افـراد الاجتماع الذين يتكلفون بذلك كل حسب طاقته يغبنون من عملهم هذا . افلا تربوا ارباحهم عموما على خسارتهم ماديا وصحيا وادبيا من توفير وسائل العمل للعمال . الا يزيد هنائهم في صحتهم وصفاتهم في راحتهم ؟ الا يقـل التذمر في الاجتماع حينئذ او لا يصح الاجتهاد وعنوان النفـل الصحيح ويكون ذلك اكبر حاث على العمل والجد ؟ وهذا ليس حلما الا في رؤوس الذين تستثقل طباعهم الخروج عن المألوف وهذا النظام ولا ريب نظام الاجتماع في المستقبل[٣٣] .

وبغض النظر عن مدى راديكالية الرجل في نظرته الاشتراكية التي كانت تجمع بين العلمية الطوباوية والفابية ، اضافة الى ارائه الشخصية، فانه كان يبتغي منها خير المجتمع لقناعته المطلقة بان الاشتراكية لا تضر الاجتماع لانها تطلب للاجتماع ما تطلبه نواميسه نفسها ، بل بالضد من ذلك تنفعه اذ تؤيد الفضيلة وتصد عن الرذيلة باتباعها سبل الاجتماع القويمة لان الفضيلة ليست

(٣١) المرجع نفسه ص ٢٠٠ .
(٣٢) نشر المقال في مجلة (المقطم) المصرية ١٩٠٨ .
(٣٣) الجزء الثاني من مجموعة الدكتور شميل ، ص ١٨٥ .

الا انطباق اعمال الاجتماع على نواميس الاجتماع والرذيلة مخالفة هذه النواميس [٣٤] .

من هنا فأن الاشتراكية ليست كما يرميها خصومها بأضغاث احلام ولا اصحابها ظلام طغام فهي لاتركب بمطالبها من الخيال وتحلق بالانسانية الى جنان النعيم ولاتكبله بحبال الخبال وتزجه في قعر الجحيم بل تريد ان تمهد له سبل السعادة على هذه الارض فتسترد له الفردوس الضائع ، تسترده من ايدي مردة الاجتماع وآبالسته فتخفض من كبرياء وترفع من نفوس وتقرب من صولجان الملك وعصا الراعي حتى يتم تكافوء الفضل بينهما . » وهي تريد ان تمهد للانسان سبل السعادة » على هذه الارض ، او بالاحرى ان ، تقلل من ويلاته فتضمن له حاجاته وتصون حقوقه بعد ان تفرض عليه واجباته وترفعه من تحت مواطىء الاقدام الى مقامه كأنسان وتعلمه انه عضو من المجتمع لا يجوز ان يبقى عالة عليه نافع وانه عامل فيه لا يجوز ان يبقى غير منتفع وان تبادل المنفعة ينبغي ان يكون على قدر العمل[٣٥] .

لم يبق شميل في توجهاته الاشتراكية وحيدا في الميدان ، بل سرعان ما ظهر في مصر اشتراكيون اخرون كانت اراوءهم في الغالب خليطا من افكار الاشتراكية العلمية والفابية وحتى الطوباوية[٣٦] .

وقد تأثر معظم هؤلاء باراء شبلي شميل وكتاباته حول الاشتراكية والداروينية ، منهم سلامة موسى ولطفي السيد واسماعيل مظهر وغيرهم ممن اعترفوا في مؤلفاتهم بذلك التأثير صراحه [٣٧] .

---

(٣٤) المرجع نفسه ص ١٨٤ .

(٣٥) ص ١٥٣ .

(٣٦) يمكن استثناء مصطفى المنصوري في ذلك ، فان افكار الاشتراكية العلمية كانت هي الطاغية على ارائه .

(٣٧) انظر ، سلامة موسى ، نظرية التطور واصل الانسان ، القاهرة لا ت ص ٤ و « ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء ، المقدمة ، اسماعيل مظهر ، القاهرة ، ١٩٢٥ ص ٥ ، والفكر العربي في عصر النهضة «البرت حوراني ، بيروت ١٩٧١ ص٢٠٩ .

وبغض النظر عن العديد من تقييماته الخاطئة فان الدكتور شبلي شميل قد اثبت من جانب اخر جدارة وبعد نظر واضح فى بعض معالجاته السياسية . وربما يكفي القول انه في العام ١٨٩٨ ، اى بعد مرور فترة وجيزة جدا على ظهور الاتحاديين فوق المسرح السياسي في الدولة العثمانية حتى توقع لهم النجاح وتسلم السلطة على اساس تحليل منطقي للامور والربط بينهما[٣٨] .

والابدع من ذلك ان شميل قدر بشكل صحيح مصير هؤلاء قبل افول نجمهم السياسي بعقدين كاملين فقد اختتم مقالته «تركيا الفتاة وتركيا العجوزة» المنشور في «البصير» القاهرية هكذا : ان «الامة» العثمانية ، مقضي عليها بحكم النواميس الاجتماعية التي هي فى صرامتها كالنواميس الطبيعية ، بالتشتت والانفصال فقد ادركتها الشيخوخة والمريض قد اشرف على الموت فلا يقيها دهاء تركيا العجوزة ولا تخبط تركيا الفتاة ، دهاء وتخبط لا يفيد ان الا التعجيل بالانحلال بزيادة الاختلال . [٣٩]

ومرة اخرى يبدو بعد نظره السياسي وعمقه الفلسفي وتوقعاته الصائبة من خلال ما توقعه من مستقبل ثوري للقوى المضطهدة . فقبل ان تنجح اي ثورة ضد رأس المال المستغل او الاضطهاد الكولونيالي توقع شميل ان يرى في العالم ثورات ، ليست الثورة الفرنسوية – وهي قيام الشعب على النبلاء بالنسبة اليها شيئا يذكر لانحصار تلك أذاك في بقعة معلومة واما هذه .. (فشرها) [٤٠] لا ينحصر اليوم في بقعة معلومة وفي قوم معلومين بل سيمتد لهيبه الى كل العالم المتمدن ومن يعيش يره [٤١] .

---

(٣٨) الجزء الثاني من مجموعة الدكتور شميل ، ص ١٩٠ – ١٩٤ .

(٣٩) ص ١٩٤ .

(٤٠) كلمة فشرها هنا غير واردة وتبدو غريبة في سياق مقالة الدكتور شبلي شميل نفسه .

(٤١) الجزء الثاني من مجموعة الدكتور شميل ، ص ٣١٦ .

ومع كل ما سبق فان افكار شبلي شميل لا تخلو من بعض الشطط والارتباك كما لمحنا الى ذلك مرارا . فقد اشرنا الى انه كان داروينيا اكثر من داروين نفسه اذ تمسك بتلابيب هذه النظرية وأراد تطبيق روحها على معظم ما عالج من امور . ففي نزع السلاح ، مثلا يقول شميل، ويخطىء ، من يظن ان اعداد السلاح والتأهب للنزال والكفاح مضر بالهيئة الاجتماعية ... بل هو بالضد من ذلك موجب لارتقائها فناموس تنازع البقاء في الطبيعة هو قاعدة ناموس النشوء والارتقاء وكلما قل التنازع وقفت حركة الارتقاء بل دار دولابها الى التقهقر .. [٤٢] .

وللدكتور شبلي شميل اراء سياسية لاتقل غرابه عن ذلك . فبالرغم من أنه فهم الى حد كبير طبيعة الاستعمار ولا سيما الرأسمال المستغل ، الا انه يضفي على الممثلين الحقيقيين لهما بعض الصفات التي تجعل المرء يستغرب صدورها من فكره الثاقب . فان تيودور روزفلت صاحب فكرة تفوق العنصر الانكلو سكسوني على الشعوب الاخرى وواضع «مبدأ مونرو» و «سياسة العصا الغليظة» بحق بلدان امريكا اللاتينية[٤٣] ليس في نظر شميل « موظفا كسائر الموظفين ولا ملكا كسائر الملوك بل هو الرجل الاجتماعي العظيم الذي عرف ادواء الاجتماع»[٤٤] . والانكي من ذلك هو رأي شميل في اللورد كرومير ، فأن هذا الدركي الكالونيالي الذي نجح في تحويل مصر الى

(٤٢) المرجع نفسه ، ص ٩١ ، ورد ذلك ضمن تعليق له على مشروع القيصر الروسي في نزع السلاح . وقد تهجم في المقال وعن حق على العديد من جوانب سياسة حكام روسيا القيصرية .

(٤٣) انظر ، امريكا اللاتينية وسياسة العصا الغليظة ، محمد العزب موسى ، مجلة الكاتب المصرية عدد ١٩٦٨/٨٢ ص ٩٢ — ٩٤ .

(٤٤) المرجع نفسه : مجموعة الشميل ج ٢ ص ٣١٦ . أن بعض الاجراءات الشكلية التي اتخذها روزفلت ضد الاحتكارات بهدف انقاذ النظام الرأسمالي نفسه من ازمته السياسية والاقتصادية جعلت من الدكتور شبلي شميل وغيره لا يفهمون الرجل كممثل مخلص للرأسمالية .

مستعمرة تابعة لانكلترا و «بطل» مأساة دنشواى الذي بلغت به حماقاته حد ان حكومته اضطرت الى ابعاده من مصر ، ان كرومير هذا يعتبر في نظر شميل «من اعاظم رجال العصر واصحاب العقول الراقية ، لصوته دوي في محافل العالم المتمدن وهو من نادرة الرجال السياسيين يقول ما يفتكر ولا يساري .. »[٤٥] .

بينما المعروف عن كرومير انه ظل في مصر يماري ويقول ما لا يفتكر طيلة سنوات عمله هناك عضوا في لجنة القرض المصري او مستشارا ماليا ، او حاكما عاما لقد حجب وهج الحضارة الغربية مع المعاناة من التخلف العثماني وضوح الرؤيا السياسة من الدكتور شبلي شميل الى حد انه اتخذ موقف المؤيد من الاحتلال البريطاني لمصر التي «اصبحت حياتها ذات قيمة» بفضل الوجود الانكليزي في البلاد . ومن نفس — المنطلق نفسه اعتبر امتياز قناة السويس خيرا ما بعده خير للشعب المصري .

ويؤخذ على شميل كذلك موقفه من المرأة « ففي خطبة له القاها عام ١٨٨٦ في «جمعية الاعتدال» بالقاهرة والتي نشرتها مجلة «المقتطف» حاول شميل بالاستناد الى حجج مختلفة استقاها من علوم الطب والاجتماع والحيوان اثبات ان الظروف الخاصة للمرأة جعلتها دون مستوى الرجل فهي بالنهاية «تابعة للرجل في ارتقائه مساعدة له متممة ما نقص من كماله مخففة عنه مشاق الحياة الداخلية»[٤٦] ، والجدير بالذكر ان رأى الدكتور شميل قد اثار المرأة المثقفة المصرية فانبرت مجموعة منهن للرد عليه على صفحات المقتطف ، فاضطر هو من جانبه الدفاع عن رأيه مرة اخرى[٤٧] .

(٤٥) المرجع نفسه ، ص ٦٠ ، ومن الطريف ان نذكر ان راى الدكتور شميل هذا قد ورد ضمن تصديه للورد كرومير بسبب تهجمه على القرآن الكريم .

(٤٦) المرجع نفسه ، ج٢ ص ١٠٤ .

(٤٧) تعتبر مقالته « المرأة والرجل هل متساويان » من اطول مقالاته (راجع : ص ٩٢ — ١١٧ ج ٢ المجموعة) .

وهناك نقطة ضعف اخرى في افكار الشميل ، انه يهاجم العلوم الانسانية كعلوم الكلام ، اللغة ، الشعر ، والفقه واعتبرها «اشبه بهذيان» ومماحكات لاطائل تحتها [٤٨] .

والغريب انه يشن هجومه على الادباء والادب والشعر والشعراء ... ولكنه يصوغ هجومه شعرا وهو نفسه شاعر مجيد ويستخدم الشعر في كل محاوراته وكتاباته وقلما تجد له مقالا في اى مجال من مجالات البحث العلمي بغير عدد ابيات من الشعر [٤٩] . ويبدو لي ان هجوم شبلي شميل على العلوم الانسانية جاء من اعجابه بالعلوم الطبيعية التي «اعتبرها العلم الصحيح والطريق الصحيح الى التقدم والتحرر وتحقيق الآمال الانسانية»[٥٠] .

لذا دعا شميل الى الغاء مدرسة الحقوق واقامة مدرسة للكيمياء والطبيعيات والميكانيك والفلك والرياضيات وانشاء جامعة لتعليم التاريخ الطبيعي والاجتماع والاقتصاد الطبيعي [٥١] ورأى شميل في (العلم والعدل والحرية كشيء مهم في تحديث الدولة ، ولهذا قدم برنامج مهما لتحديث الدولة العثمانية قدمه بكتاب موجه للسلطان العثماني عبدالحميد (١٨٩٦) بعنوان (شكوى وأمل)[٥٢] لخص فيه افكاره حول ما كانت تعانيه الدولة العثمانية واعتبر (العلم) شيء اساسي في تطورها .

ان دعوة شبلي شميل الى «العلم» والاهتمام به دعوة ضرورية وشجاعة ايقظت كثيرا من العقول والهمتها حب العلم والاهتمام به وضرورة الاستناد

---

(٤٨) د . شبلي شميل المجموعة ج١ ، ص ٣ – ٤ .

(٤٩) حول هذا الموضوع انظر ، الدكتور رفعت السعيد « طلائع الفكر الاشتراكي في مصر » ص ٣٦ – ٣٧ .

(٥٠) انظر مجموعة الدكتور شبلي شميل ، الجزء الاول ، المقتطف ١٩١٠ (القاهرة) ص ٢ .

(٥١) د . رفعت السعيد ، المصدر السابق ص ٣٨ .

(٥٢) البرت حوراني ، المصدر السابق ، ص ٢٩٧ .

عليه في معركة النضال ضد التخلف والخرافات التي تسود الفكر والتفكير والتدريس والحياة العامة .

يمكن القول ، اخيرا ان الدكتور شبلي شميل ، رغم بعض المآخذ عليه ، يعتبر رائدا فكريا من نوع جديد ومصلح اجتماعي وعالم ضليع وأديب متمكن ، وقد شهد له بذلك العدو قبل الصديق .

ان دراسة افكار الرواد بما لهم وما عليهم ، دين كبير على كتابنا فمن شأن ذلك الكشف عن صفحات مضيئة من ماضينا القريب الذى شهد بدايات مهمة لتوجهات فكرية حتمتها ظروف المجتمع ومهماته الجديدة .

المحتويـــــات

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد

(١٠٨٣) لسنة ١٩٨١

دار الحريـــة للطباعـــة ــ بغـــداد

١٤٠١ هـ ــ ١٩٨١ م